# مقالات وآراء

د. مهنر عبد الفتاح النسور

# مقـــالات وآراء

الدكتور

مهند عبد الفتاح النسور

٢٠٢٦

التجمع العربي للنشر والتوزيع

(أفكار الكتاب وحقوق الملكية الفكرية يتحمل مسئوليتها المؤلف وحده)

التجمع العربي

للنشر والتوزيع

مدير الإنتاج

مونتاج SH

الطبعة : الأولى

كتاب : مقـــالات وآراء

تأليف : د. مهند النسور

تصنيف الكتاب : مقالات وآراء

المقاس:14-20

رقم الإيداع: 0000 /2025

الترقيم الدولي

978-977-982-000-0

التجهيز الفني / حسن عبد الحليم

التجمع العربي للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

القاهرة : السيدة زينب ١٢ شارع مقامي خلف السيدة زينب مباشرة

القاهرة : ١٤ - ٤٧ ابو سريع البيومي بجوار مستشفى الوزان - البساتين

الجيزة : ٢٨ ش ١٠ - الطوابق - فيصل

سـوهاج - المراغـة - نجـع ابـو عوضـ

العراق : كربلاء - الهندية امام قائمقام - مكتبة الحمداني

فاكس : ٠٢٢٥١٨٧٩٢٤ ـ واتساب : ٠٠٢٠١٠٦٣٢٤٠٥٩٧

اتصال وواتساب : ٠٠٢٠١٠٦٣٢٤٠٥٩٧

واتساب :٠٠٢٠١١٥٠٥٨٨٠٥٣

بريد الكتروني eltgmoa3@gmail.com

موقع الكتروني https://www.eltgmo3s.com

الحقوق محفوظة للمؤلف

# إهداء

**أُهدي هذا الكتاب إلى كل نفسٍ مُتّقدة بالإصرار ومُؤمنة بفلسفة الاستمرارية.**

**إلى كل من يواصلون الطريق في صمت، ويرفضون التوقف عند عتبات الإحباط، مدركين أن الاستمرار هو سرّ الحياة وجوهر الصمود.**

**وإلى كل من يؤمنون بأن الكلمة الحرة المُفعمة بالصدق، والعمل المهني المتجرد، هما بذرة التغيير الحقيقي والوحيدة القادرة على إنماء الوعي الجمعي.**

الدكتور

مهنّد عبد الفتّاح النسور

عمّان، ٢٠٢٦

# الفهرس


الإهداء.....٣

مقدمة الكتاب مقالات وآراء عبر الزمن .....٩

**القسم الأول : مدونتي .....١٢**

**الباب الأول: في معنى الإنسان.....١٣**

حين يُختزل الدين في الطقوس: دعوة إلى إحياء جوهر الإيمان:.....١٣

لماذا يختلف الإسلام في الدول العربية عنه في الدول غير العربية؟ .....١٦

الإلحاد في العالم العربي: من الظاهرة الصامتة إلى التحول

الاجتماعي: .....١٩

قبر للرحيل... وشيء من الكرامة الأخيرة:.....٢٢

في أعماق كلٍ منا، ثلاث قوى: .....٢٤

**الباب الثاني: أمتنا العربية.....٢٦**

حين لا تكفي الغضبة:.....٢٧

في حضرة الموت... نحمل الحياة:.....٢٩

مرايا الأوطان المتعبة:.....٣٢

الأمة العربية... بين النثر والعاطفة والعلم والتجريد: .....٣٥

تحرير العقل العربي من أسر التراث المغلق:.....٣٩

بلاد العرب أوطاني... هذا ما تبقّى من الكبرياء: .....٤٢

العراق: من فجر البشرية إلى وهجٍ لا ينطفئ، وإن خبا:.....٤٥

من الأردن إلى العرب... غضب بنكهة محبة! .....٤٧

**الباب الثالث : تحديات النهضة والإصلاح.....٤٩**
**الأزمة البنيوية في العالم العربي:.....٥٠**
**السقوط في الفخّ اللامرئي:.....٥٣**
**أزمة الهوية والانتماء في الدولة الحديثة:.....٥٦**
**تكفير العلماء والمفكرين العرب:.....٥٩**
**تأملات في ثقافة البادية: .....٦٢**
**العمل .. بين الإنتاج والحضور: .....٦٥**
**الباب الرابع: قضايا مجتمعية .....٦٨**
**الضحالة المعرفية بيئةً للغوغاء والكره .....٦٩**
**العنف المجتمعي في الجامعات:.....٧١**
**التوجيهي في الأردن... موسم الطوارئ الوطني!.....٧٣**
**مواسم التعديل الوزاري:.....٧٥**
**من العادة إلى الوعي في بيوت العزاء:.....٧٨**
**ولائم الفرح بين الماضي والحاضر: .....٨٠**
**نحتفي بالعروس... وننسى من ربّتها:.....٨٣**
**ائتلاف اللهجات وشتات المبادي ميثاق البيت المفقود:.....٨٥**
**الدخان... صديقٌ قديم: .....٨٨**
**الطعام كمرآة للثقافة: من موائد تونس إلى أعراس عمّان:.....٩١**
**في يومهم... نتعلم من الصمت الوقور:.....٩٣**
**اليوم العالمي للرجل: .....٩٦**
**أبو صابر... ذاكرة القرية وصبر الأرض:.....٩٧**
**الإنهاك بين الجسد والنفس: واقع يعيشه كثيرون في صمت:.....١٠١**

**الباب الخامس : الفكر والثقافة**.....١٠٤
أدب السجون: حين يكتب الجرح على جدار الصمت:.....١٠٥
الرفاهية الزائدة... حين تُغلق النوافذ أمام الروح وتُربّي
الظلّ لا الأصل:.....١٠٧
الشاعرة روضة الحاج... شاعرة النيلين وسيدة القصيدة الصادقة:.....١١٠
دوستويفسكي... حين نطق الألم بالحكمة:.....١١٣
الرقص... مرآة الشعوب:.....١١٥
**الباب السادس : تأملات وومضات**.....١١٩
يوميات من ليون ... وتنوع التجارب والثقافات:.....١٢٠
٢٠٢٥.. عامٌ ثقيل... ومحاولة صادقة للفهم:.....١٢٤
الحارة التي لا تخون الذاكرة: .....١٢٧
العودة إلى البيت... حيث المعنى قبل الطعم:.....١٢٩
المطر الذي لم يهطل: .....١٣١
أجواء الشتاء بعد طول انقطاع:.....١٣٢
**القسم الثاني : مقالات منشورة**.....١٣٤
تجليات إفريقيةً: يوميات نشمي من سهول القارة الإفريقية:....١٣٥
دوستويفسكي وتولستوي... النبعان المختلفان للروح الإنسانية:..... ١٣٨
باكستان... القوة الهادئة التي تنبض بالحياة والتجدد: .....١٤٢
المرأة العربية بين النهوض الحقيقي والانزلاق في التقليد الأعمى: .....١٤٥
اليمن... بلد العراقة الذي لم تنحني جباله:.....١٤٨
اليمن.. الجمال الموجوع ووجدان العرب: .....١٥١
اللغة العربية... موسيقى الروح ولسان الهوية:.....١٥٤

التنوع مصدر قوة: روسيا الاتحادية مثالًا حيًّا:.....١٥٨
عجز عن التنوع... أم خوف من الذات؟.....١٦١
مؤتمر النهوض بالصحة العامة من أجل المستقبل: المؤتمر
الدولي التاسع لجمعية الصحة العامة الأردنية.....١٦٣
الدبلوماسية الصحية: ضرورة استراتيجية في عالم متداخل ومتغير:....١٦٦
النهضة الإفريقية الحديثة: هل يشهد العالم ميلاد «نمور إفريقية»؟.....١٦٩
التسرب الاشعاعي: بين دروس تشيرنوبل ومخاوف ايران... الصحة
العامة على المحك: .....١٧٢
اعلان قرطاج: خطوة اقليمية لترسيخ نهج الصحة الواحدة في
مجال الصحة العامة:.....١٧٥
نحن والمرجعيات الثلاث: تساؤلات في العمق الاجتماعي:.....١٧٨
الأضحية مسؤولية ومظهر حضاري: بين تعظيم الشعيرة
وصون الصحة والبيئة:.....١٨١
الحوار الصحي بين دول الشمال والجنوب: طريق محفوف
بالتحديات والفرص:.....١٨٣
التعليم واللغة.. بين اختلاف الفرص وضياع الهوية.....١٨٦
العمل.. أكثر من وظيفة:.....١٨٩
أهمية الطب البيطري في الصحة والاقتصاد: .....١٩٢
بيروت حزينة.. لا تبكي لكنها تنزف:.....١٩٥
تعزيز الأمن الصحي في الوطن العربي.. الهيئة العربية
لمكافحة الأمراض والوقاية منها:.....١٩٧
المعايدات المعلبة في زمن الرسائل الجاهزة:.....٢٠٢

عيد زمان: بهجة الفوضى وحنين التعب الجميل! ..... ٢٠٣
الذكاء الاصطناعي والصحة في العالم العربي: بين آفاق
التكنولوجيا الواعدة وتحديات التطبيق: ..... ٢٠٧
المراجع ..... ٢١١

# مقدمة الكتاب
# مقالات وآراء عبر الزمن

في زمنٍ تتسارع فيه الإيقاعات العالمية وتتعقد فيه التقاطعات الفكرية والوجودية، يبقى للكلمة الصادقة وزنها الأخلاقي وأثرها العميق في وجدان المتلقي.

إن هذا الكتاب هو أكثر من مجرد تجميع لنصوص وخواطر كُتبت على مدى سنوات؛ إنه سِجلٌ لرحلة فكرية وإنسانية خاضها الكاتب في مختبر الحياة والميدان العملي. تتجلّى فيه محطات من التأمل النقدي، والبحث المضني، والحنين الجارف إلى الجذور، ليقدم للقارئ رؤية جامعة. هنا، تتجاور القضايا الكبرى والمفاهيم الاستراتيجية مع التفاصيل الإنسانية اليومية، وتلتقي هموم الأمة ومحاورها الأساسية مع نبض الفرد، في محاولة لسردٍ يلتقط روح العصر بمهنية دون أن يُفقد أصالة الرؤية ودفء التجربة الشخصية.

لقد صيغت هذه المقالات والآراء لتوثيق لحظات من القلق الفكري والأمل المشرق، ومن الانكسار الذي قاد إلى النهوض، ومن النقد الذاتي العميق، وصولاً إلى الحنين إلى الأصول. ستجدون في ثنايا هذه الصفحات مقاربات متنوعة ومنابر فكرية متعددة من نقد العادات الاجتماعية، إلى تحليل الظواهر السياسية المعاصرة، مروراً بتأملات معمقة في قضايا الهوية والدين والتعليم، وانتهاءً بقصص الناس البسطاء وتجليات الحياة اليومية. كل نص في هذا

العمل هو دعوة للحوار المتبصر مع الذات ومع الآخر، وسعي دائم للبحث عن معنى أعمق في عالم متغير بسرعة هائلة.

بالنظر إلى خلفية عملي الطويلة في ميادين الصحة والمجتمع والثقافة، أؤكد أن هذه النصوص ليست مجرد خواطر عابرة أو ردود فعل آنية، بل هي خلاصة حصاد تجربة شخصية من قلب الميدان بين الناس، وداخل المؤسسات الرسمية، وفي فضاءات المبادرات المجتمعية. لقد ترسّخ لديّ مفهوم أن الكلمة ليست مجرد أداة تعبير، بل هي مسؤولية أخلاقية ورسالة مهنية. حاولت أن أكون صادقاً مع نفسي ومع القارئ، وأن أطرح الأسئلة الجوهرية قبل أن أستعجل الإجابات، وأن أحتفي بالتنوع والاختلاف بدلًا من الانغلاق الفكري.

حين أعود بذاكرتي إلى سنوات من العمل والكتابة والتأمل، أجد أن أكثر ما شكّل تجربتي ليس النجاح السريع ولا الإنجاز السهل، بل تلك اللحظات التي بذلت فيها جهدًا كبيرًا دون أن أرى نتيجة فورية. تعلمتُ من الحياة، ومن مراقبتي لتجارب الناس، أن الجهد لا يضيع أبدًا، حتى لو بدا أحياناً أنه «جهد مهدور».

لقد آمنت دائمًا بفلسفة الجهد المهدور الإيجابي وأن النجاح ليس فقط أن تصيب الهدف من أول محاولة، بل أن تواصل المحاولة رغم الفشل، وأن تدرك أن كل جهد، حتى لو لم يؤتِ ثماره فورًا، هو خطوة في طريق التراكم المعرفي والتغيير المستدام. فكما

في قوانين الطبيعة، كذلك الإنسان: الفشل الوحيد هو التوقف عن المحاولة.

ومن هنا، أتوجه للقارئ بثقة:

«ولو كان لا بدّ من كلمة تلخص هذه الدنيا فستكون بكل بساطة: استمر»

هذه الصفحات هي دعوة حوارية للاستمرار في السعي والمحاولة، رغم الإحباطات والعثرات. هي دعوة لأن نعيد تعريف النجاح، لا كسيرة خالية من الأخطاء، بل كقدرة على النهوض بعد كل سقوط، وعلى التعلم من كل تجربة، وعلى الإيمان الراسخ بأن لكل جهد معنى يتجاوز النتيجة المباشرة.

★★★

# القسم الأول

## مدونتي

# الباب الأول
# في معنى الإنسان

## حين يُختزل الدين في الطقوس: دعوة إلى إحياء جوهر الإيمان:

تفصل بين مفهوم التدين الطقسي المظهري وبين التدين الأخلاقي الجوهري مسافة نوعية، لا تُقاس بعدد الشعائر المؤداة، بل بقدرتها على إحداث أثر صادق في السلوك المترجَم على أرض الواقع. فالطقوس الدينية، في أصلها، ليست ممارسات شكلية معزولة، بل أدوات تربوية وروحية وُجدت لتشكيل الضمير وتهذيب الفعل، غير أن الإشكال يبدأ حين تتحول هذه الطقوس إلى غاية بذاتها، منفصلة عن مقاصدها الأخلاقية.

في مجتمعاتنا العربية، تبرز المظاهر الخارجية للالتزام الديني كصلوات معلنة، وصيام بارز، ولباس يُشير إلى التقوى، وهي مظاهر مرتبطة بالتدين، غير أن المفارقة تظهرعندما يكون تناقض صارخ مع السلوكيات اليومية التي يطغى عليها أخلاق مثل الكذب

والظلم. وهنا يطرح السؤال الفكري ذاته بصدق مؤلم: هل نمارس تدينًا حقيقيًا شاملا يعكس جوهر الإيمان، أم طقوسًا مُفرغة من مضمونها الأخلاقي؟

الدين، في أعمق تجلياته الفلسفية والأخلاقية، ليس مجرد طقوس جسدية تُؤدى، بل هو منظومة قيم متكاملة تُترجم إلى صدق ورحمة وعدل مجتمعي. إن الغاية الكبرى للرسالات السماوية كانت تزكية النفس وتهذيب السلوك الإنساني، بشكل لا ينفصل عن الشعائر. يؤكد القرآن الكريم هذا الجوهر: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ» (العنكبوت: ٤٥)، فإذا لم تكن الصلاة رادعاً لصاحبها عن الكذب والغلظة والغش، فإن الخلل يكمن في استيعاب المضمون الروحي، وليس في أداء الشعيرة ذاتها.

وتتعمق هذه الرؤية في التراث المسيحي، حيث يقول السيد المسيح عليه السلام: «ليس كل من يقول لي: يا رب، يا رب، يدخل ملكوت السماوات»، في تأكيد على أن الإيمان بالقول أو الممارسة لا يكتمل ما لم يُترجَم إلى فعل نقي وسلوك مستقيم.

على الرغم من الارتباط التاريخي العميق بين الدين والأخلاق ، إلا أن التجارب الإنسانية أثبت أن هذه العلاقة ليست حصرية بالضرورة. فهناك نماذج مجتمعية تُصنَّف بكونها ذات طابع لاديني أو غير شعائري عالٍ كاليابان والدول الاسكندنافية ومع ذلك، تتفوق في مؤشرات احترام القانون، والصدق، والنزاهة المؤسسية، وكفاءة العمل الجماعي. هذا الاستنتاج لا ينتقص من مكانة

الديـن، بـل هـو تأكيـد على أن الأخـلاق يمكن أن تسـتمد جذورها من الضمـير الفطـري والمسـؤولية المدنيـة والاجتماعية، بمعـزل عن التدين بمفهومـه الشـكلي الضيق.

إن الهـدف مـن هـذا الطرح هـو إعادة توجيـه البوصلـة الدينية نحـو موقعها الجوهـري كوسـيلة فاعلـة لبنـاء الإنسـان وتزكيتـه، فالديـن الـذي لا يُثمـر صدقـاً في التعامـل، ولا يولّـد عـدلاً في الحكـم، ولا يُنتـج رحمـة في التفاعـل الإنسـاني، هـو ديـنٌ تـم اختزالـه إلى قـشرة سـطحية بـلا لـبّ. إن تفـشي آفـات كالغيبـة والافـتراء وتزييف الحقائـق ليـس أزمـة سـلوك عابـرة، بـل دلالـة عـلى خلـل عميـق في الفهـم الدينـي ذاتـه. ويختـصر النبي محمـد ﷺ الرسـالة كلها بقوله البليغ: «إنمـا بُعثـت لأتمـم مكارم الأخلاق». في إشـارة واضحـة: الغاية ليسـت العبادة المحضة فحسـب، بل بناء إنسـان ذي كرامة، مسـتقيم السـلوك، ورحيـم في مقاصـده.

وفي عـالمٍ مثقـل بالضجيـج والشـعارات، لا يبـدو الاحتيـاج الأكـبر إلى مزيـد مـن المظاهـر الدينيـة الصوتية، بقدر ما يبـدو الحاجة ملحّة إلى سـلوك يُجسّـد القيـم التـي نُعلـن الإيمان بهـا: أمانةً، وثقـةً، وعدلًا راسـخًا في تفاصيل الحيـاة اليومية.

★★★

# لماذا يختلف الإسلام في الدول العربية عنه في الدول غير العربية؟

عندما يتأمل المرء خارطة الوجود الإسلامي عالمياً، يرى أن الإسلام بوصفه دينا متأصلا في جوهره العقائدي، إلا أنه كان له تجليات حضارية وثقافية متنوعة.

في الفضاء العربي، شهد الإسلام تماهيًا تاريخيًا عميقًا مع اللغة العربية، والهوية الجمعية، وبُنى السلطة السياسية. فقد جاء في هذه المنطقة في سياق تشكّل الدولة والمجتمع معًا، الأمر الذي أفضى إلى اندماجه المبكر في مفهوم الدولة المركزية والتشريع العام. هذا المسار التاريخي، على غناه وأهميته، أسهم أحيانًا في ترسيخ تصور ضمني يرى في النموذج الثقافي العربي مرجعية شبه حصرية لفهم التدين، بما يوحي، عن غير قصد، أن اكتمال التجربة الإسلامية لا يتحقق إلا ضمن إطار ثقافي بعينه.

أما عند الابتعاد جغرافياً عن هذا المركز، نحو عمق آسيا وأفريقيا، تتبلور صورة مغايرة تماماً. في إندونيسيا مثلاً، لم يكن دخول الإسلام عن الفتوحات، بل جاء على أيدي البحّارة والتجّار، الذين قدموه بصورة نقية، بسيطة، متماشية مع التقاليد المحلية. لم يُفرض بالقوة، بل قُدّم كنموذج أخلاقي من خلال السلوك الراقي وعدل المعاملة، ونتيجة لذلك، تشكل هناك إسلام ذو طابع

أخلاقـي روحـاني تحـول إلى منظومـة قيـم مدنيـة راسـخة.

ويتكـرر هـذا النمـوذج الإيجـابي في ماليزيـا، حيـث نجح الإسـلام في التفاعـل الخـلّاق مـع مـشروع الدولـة الحديثـة، محافظـاً عـلى ثوابتـه دون أن يتحـول إلى أداة أيديولوجيـة قسريـة. أمـا في أماكـن كـهونغ كونـغ، تظهـر صـورة أخـرى حيـث تمـارس أقلية دينهـا بهدوء تـام ومهنيـة عاليـة، دون ادعـاء أو اسـتعراض، وتقدم نموذجـاً أخلاقياً راقيـاً، تسـتمد هيبتـه من صـدق الممارسـة السـلوكية لا مـن ضجيـج الخطـاب. أمـا في القـارة الإفريقيـة، فللإسـلام مـذاق خاص؛ نـرى ديناً امتـزج بالحكمـة الشـعبية، مكونـاً نسـيجاً فريـداً.

لعـب عامـل اللغـة دوراً محوريـاً في هـذا التباين. ففـي العـالم العـربي، ارتبطـت قداسـة النـص القـرآني باللغـة العربيـة. في المقابـل، في الـدول غـير العربيـة، قُدّمـت الترجمـة كجسـر للفهـم والانتـماء لا كتهديـد للأصـل. وعـلى صعيـد في كثـير مـن الـدول العربيـة، أصبـح الإسـلام جـزءًا لا يتجـزأ مـن خطـاب الشرعيـة السياسـية، مـما ربـط اللغـة الدينيـة بـالتوتر الأيديولوجـي. بينما لا تـزال مجتمعات أخرى تحافـظ عـلى تدينهـا الشـعبي العميق دون إفـراغ الدين مـن محتواه الأخلاقـي لصالـح شـعارات سياسـية عابـرة.

ولا يمكـن إغفـال الحقيقـة التاريخيـة المعرفيـة؛ فعـلى الرغم من أن الإسـلام نشـأ في جزيـرة العـرب، إلا أن العلـماء والمفكريـن مـن الأصـول غـير العربيـة كان محوريـا في بنـاء العلـوم وتعميـق الفهـم المعـرفي. لقـد حمل الفـرس والأتراك والهنـود والأمازيغ مشـعل العلم

والحكمة، وأسهموا في بناء صرح حضارة إسلامية جامعة ذات بعد أممي.

إن مراجع الفقه والحديث والتفسير تزخر بأسماء غير عربية جعلت من اللغة العربية لغة علم عالمي ومحور معرفي. لقد وسّع هؤلاء العلماء من آفاق الإسلام ليصبح دينًا أمميًا يحتفي بمركزية العقل كما يحتفي بالإيمان. إن الإسلام في جوهره هو رسالة مفتوحة على الزمان والمكان، وليس امتيازاً ثقافياً لمنطقة دون أخرى. وتبقى التجارب غير العربية في ممارسة هذا الدين شاهدًا على قدرته الاستثنائية على الانفتاح، والتكيّف، والازدهار، حين يُترك ليعيش كما بُدئ: خفيفًا على القلب، ثقيلًا في المعنى، ورحيمًا بالناس كافة.

★★★

# الإلحاد في العالم العربي: من الظاهرة الصامتة إلى التحول الاجتماعي:

شـهد العقـد الأخير تصاعـدًا نوعيًا ومُلاحَظـاً في النقاش المجتمعي حـول ظاهـرة الإلحـاد واللادينيـة في العـالم العربي. لم يعـد الأمر مجرد خيـار فـردي هامـشي، بل تحـوّل إلى ظاهـرة اجتماعيـة وفكرية بدأت تطفـو إلى السـطح بعـد أن ظلـت محتجـزة طويـلاً في زوايـا الصمـت. ورغـم الافتقـار إلى إحصائيـات رسـمية موثوقـة، فـإن المـؤشرات النوعيـة والدراسـات الاجتماعيـة تشـير إلى تنامـي أعداد مـن يعرّفون أنفسـهم باللادينيـين أو غـير المؤمنـين، خاصـة ضمـن فئـات الشـباب، وفي مجتمعـات عربيـة مؤثـرة مثـل مـصر، تونـس، المغـرب، والعـراق، وكذلـك في أوسـاط الجاليـات المهاجـرة.

هـذا التحـول العميـق لا يمكـن بـأي حـال فصلـه عـن السـياقات الاجتماعية، والانتكاسـات السياسـية، والأزمات الفكرية التي تعيشـها المنطقـة. كـما أنـه لا يمكـن معالجتـه بأسـلوب الإنـكار أو الإدانـة العقيمـة، بـل يتطلـب فهـمًا تحليليًا معمقًا وشـجاعًا يتجـاوز القوالب التقليديـة التـي اعتـادت قـراءة الظواهـر الدينية.

تكمـن إحـدى أبـرز ملامـح هـذه الظاهـرة في الهـوّة الإدراكيـة المتزايـدة بـين الخطـاب الدينـي الرسـمي والممارسـة الواقعيـة للحياة. لقـد نشـأ جيـل عـربي معـاصر في مناخ يتسـم بـالتناقض الصـارخ بين

المبدأ المُعلَن والسلوك الممارَس؛ حيث تُرفع شعارات الأخلاق والعدالة بقوة، بينما تغيب هذه المبادئ عمليًا في أروقة السياسة والاقتصاد والعدالة الاجتماعية. لقد عايش كثير من الشباب تجارب شخصية أو جماعية كشفت عن فساد مالي وإداري مُغطّى بعباءات دينية، وعن استبداد سياسي مُبرّر بسلطة النص أو الفتوى. هذا الوضع خلق أزمة ثقة وجودية دفعت البعض إلى مراجعة تطبيق الدين، ليس رفضًا لجوهر الروحانيات، بل احتجاجًا قاسياً على ما أُلصق به من توظيفات مشوّهة.

تعمّقت هذه الأزمة بعد انتكاسات الربيع العربي. فمع الاستخدام المضلل للدين لتكريس سلطات قائمة أو لقمع أصوات التغيير الديمقراطي، تلاشت في الأذهان الفواصل بين الدين كقيمة روحية عليا وبين توظيفه كأداة سياسية نفعية. ومع تضعضع الثقة بالمؤسسات الدينية التقليدية، بدأ مسار التحول يتسارع: من التساؤل المتردد إلى الرفض العلني، ومن الحيرة المعرفية إلى القطع العقدي.

كما أسهمت الثورة الرقمية في تسريع هذه التحولات. فقد أتاح الفضاء الرقمي منصة واسعة للاطلاع الحر على أطروحات فكرية متباينة، تمتد من نقد الفكر الديني إلى أطروحات الإلحاد والتنوير وفلسفات المعنى. وبذلك، فقدت المرجعيات الرسمية قدرتها على احتِكار التفسير أو ضبْط الخطاب الفكري. وفي غياب خطاب ديني يتسم بالعقلانية والإقناع والاتساق المنطقي في كثير من السياقات العربية، وجد الشباب أنفسهم أمام بدائل معرفية

جديـدة، قـد تبـدو لهـم أكثر اتسـاقًا مع أسـئلتهم، حتـى وإن افتقرت في بعـض الأحيـان إلى الاتـزان المنهجـي أو العمـق الفلسـفي.

ويُضـاف إلى ذلـك ضعـف المنظومـة التعليمية، لا سـيما في مجال التربيـة الدينيـة، التـي مـا زالت في كثير مـن الأحيان تركّز عـلى التلقين والحفـظ، وتُهمّـش أدوات التفكـير النقـدي، والفلسـفة، ومنهجيـة الحـوار. وعندمـا تظهـر الأسـئلة الوجوديـة الطبيعيـة، يُنظـر إليهـا أحيانًـا باعتبارهـا تهديـدًا، لا فرصـة للفهـم والتعمـق، فيُواجَـه الشـك بالإقصـاء بـدل الاحتـواء.

إن الإلحـاد، في تجلياتـه المختلفـة داخـل العالم العـربي، لا يعكس بالـضرورة فراغًـا روحيًـا أو انحـدارًا أخلاقيًـا بالمعنـى المبـاشر، بقدر ما يكشـف عـن أزمـة معنى كبرى، وعـن رغبة جادّة في فهـم العالم، وعن رفـض صـارم للزيـف والتناقـض، خاصـة حـين يصـدر هـذا الزيف من جهـات يُفـترض بهـا أن تمثـل الضمـير الأخلاقـي للمجتمـع. إنـه صرخة فكريـة لا يجـوز إسـكاتها، بـل يجـب الإنصـات إليهـا بعقـل مفتـوح وقلب مسـؤول.

إن مواجهـة هـذه الظاهـرة بالتجريـم أو التخويـف ليـس حـلاً جذريـا، بـل يجـب إعـادة بنـاء الثقـة العميقـة بـين الإنسـان والدين، عـلى أسـاس مـن الحريـة الفكريـة، والصـدق، والمعنـى. نحـن بحاجة إلى خطـاب دينـي متجـدد، لا يكتفـي بالترهيـب أو التبريـر، بـل يملك الشـجاعة للانخـراط في الأسـئلة الكـبرى لجيـل يعيش في عـالم مختلف جذريًـا عـن السـياقات التـي تشـكلت فيهـا المؤسسـات التقليدية.

★★★

## قبر للرحيل... وشيء من الكرامة الأخيرة:

انشغلنا لعدة أسابيع بأمرٍ قد يبدو بسيطًا لمن لم يختبره... لكنه في الحقيقة من أثقل ما يمرّ على القلب: شراء قطعة أرض، لا لنبني فيها بيتًا أو مزرعة، بل لنُدفن فيها يومًا ما. تجربة تحمل في طياتها حزنًا خفيًا ووجعًا داخليًا عميقًا. كيف للإنسان أن يبحث لنفسه عن مكانٍ يأوي إليه بعد الرحيل؟ ليس له وحده، بل له ولمن أحب، ولمن تقاسم معهم تفاصيل الحياة وامتلأ بهم البيت... ثم فجأة، يبدأ التفكير في مكان يجمعهم معه بصمتٍ أبدي. ايجاد قطعةً الأرض المناسبة لم يكن امراً سهلا ويسرا، وليس ايضا رخيص الثمن. و مع مرارة الموقف كم فرحنا بأننا وأخيرا وجدنا المكان و تيسرت الأمور وكنا في غاية السعادة.

قد يراها البعض إجراءً ماديًا بحتًا، أو استعدادًا منطقيًا لما لا مفرّ منه. وقد يراها آخرون مجالًا لتساؤلاتٍ تأملية: لماذا الدفن؟ ولماذا القبور؟ وكأن كرامة الإنسان بعد موته أصبحت أمرًا قابلًا للنقاش والتقليل.

ما لا يُدركه كثيرون أن كرامة الإنسان تكتمل حين يفارق الحياة. أن نبحث له عن موضعٍ كريم، عن مأوى أخير نُنزله فيه بأمانة وهدوء، لا أن يُترك كما تُترك الأشياء، ولا أن يُرمى كما تُرمى الأشياء المستهلكة، لطالما ذلك كان ممكنا. كل الشرائع السماوية كرّست

هـذا المبـدأ، وجعلت من دفن الإنسـان شـعيرة إنسـانية نقيـة، تحمل في تفاصيلهـا الـوداع، والرحمـة، واحـترام الجسـد بعـد الفنـاء. وحتـى الحضـارات القديمـة، قبـل الأديـان، فهمـت هـذا المعنـى العميق. من الحضـارة الفرعونيّـة التـي شـيّدت الأهرامـات، إلى الآشـورية والبابليّة التـي صاغـت طقوسًـا رمزيـة للانتقـال مـن الحيـاة إلى مـا بعدهـا... كانـت المقـبرة دومًـا مـرآةً لقيمة الإنسـان في الحيـاة وبعدها.

وليسـت المسـألة في نـوع القـبر، ولا حجمـه أو موقعـه، بـل في الاعـتراف بـأن هذا الجسـد، الذي عـاش التعب والفرح، وضـمّ أحبابه في لحظـات ضعفهـم، يسـتحق أن يُكـرَّم حـين تنتهـي الرحلـة و لـو الأوليـة. وفي خضـم هـذا الانشـغال الصامت، أدركت شـيئًا بسـيطًا... نحـن لا نشـتري أرضًـا للمـوت، بـل نشـتري سـكينةً أخـيرة، وطمأنينـة لمـن نحـب، حـين يـأتي الموعد الـذي لا يُرجأ. إنـه قرار واقعـي... لكنه عميـق، هـادئ... لكنه صـادق في معناه. لأن الإنسـان، في كل حالاته، حيًـا وميتًـا، يسـتحق الكرامة.

★★★

## في أعماق كلٍ منا، ثلاث قوى:

لسنا مجرّد كائنات تمرّ عبر الزمن. نحن نتكوّن، نتهشّم، نُبعث، ويعاد تشكيلنا مرارًا، لا بفعل الأحداث فقط، بل بما نسمح لها أن تفعله بنا، بما نراه فيها، بما نخسره خلالها، وبما ننجو به منها.

في عالم تُختزل فيه الحياة إلى ردود أفعال سريعة، تُقاس فيه القيم بعدد الإعجابات، وتُصبح الهوية مجرّد سيرة مختصرة أو صورةٍ صالحة للنشر، باتت الحاجة ماسّة إلى التوقّف، إلى العودة نحو الداخل وإلى المعنى. أن نسأل من جديد، لا لأننا نجهل، بل لأننا نسينا أن نُصغي. أن نعيد النظر في أبسط ما ظننا أنه مُسلّم به، لا لنشكك، بل لنفهمه كما ينبغي. وأن نكون، ولو لمرة، صادقين مع أنفسنا... بغير رتوش ولا دفاع.

فالصدق مع الذات ليس رفاهية. هو البداية. هو الجذر الأول لأي وعي ناضج، وأي معنى له قيمة. أن تعرف أين تقف، وما الذي تحمله، وما الذي تفتقده. أن لا تختبئ خلف أدوارك، ولا خلف ضجيج التعريفات التي لا تُشبهك. أن ترى ضعفك ولا تنكره، وتعترف بقلقك دون أن تخجل منه، وتحترم نفسك، رغم عيوبها، لأنها تحاول.

في أعماق كل إنسان حيّ، تسكن ثلاث قوى تتناوب عليه: فضول الطفل الذي يسأل ببراءة ودهشة، شغف العاشق الذي

يلامس الحياة بقلبه لا بعينيه، وحكمة الفيلسوف الذي يتأمل، يتروّى، ويبحث عن المعنى وسط الفوضى. الطفل لا يساوم على السؤال، العاشق لا يخجل من أن يُحبّ حتى ما يؤذيه، والفيلسوف لا يخاف من أن يشك ليصل.

وحين نجمع هذه الثلاثة داخلنا، نقترب من جوهرنا، من حقيقتنا الأولى، من إنساننا الداخلي. نُصبح أقل حاجة للتبرير، وأقل انجرافًا خلف وهم الصورة، وأكثر اتساقًا مع أنفسنا. الذين فقدوا علاقتهم بذواتهم، قد يتحدثون كثيرًا عن القيم والمواقف، لكن كلماتهم لا تنبض، لا تسكن القلب، لأنها لا تأتي من الداخل. أما من تصالح مع ذاته، فلا يحتاج أن يصرخ... يكفيه أن يكون صادقًا. والصدق لا يعلو صوته، لكنه يُضيء.

الحياة لا تطلب منّا أن نكون مثاليين، بل أن نكون حقيقيين. أن نعرف من نحن، وأن نواصل المحاولة... بصمت، بعمق، وبشجاعة لا تحتاج إعلانًا. فحين نكون كذلك، نكون، ببساطة، بشرًا يحاولون أن يفهموا... لا أكثر.

★★★

# الباب الثاني

## أمتنا العربية

# حين لا تكفي الغضبة:

إلى متى سنبقى نُشيح بوجوهنا، أيها العرب، وكأن ما يجري حولنا لا يعنينا؟ إلى متى نواصل الكلام في المجالس، ونغرق في تحليلات السياسة والتحالفات، بينما فلسطين تنزف كل صباح أمام أعيننا، وتُنتزع من بين أيدينا كما تُنتزع لعبة من طفلٍ عاجز عن الدفاع عنها؟

كيف يمكن لنا أن نسترسل في الخطاب، والسودان ينهكه الجوع، واليمن يرزح تحت القهر، والعراق ما زال يحمل جراحه العميقة، وسوريا دفعت ثمن حربٍ لم ترحم إنسانها، ولبنان يترنح، وليبيا تتآكل، بينما أفغانستان وباكستان دفعتا ثمن الفوضى والتمزق؟ أي خطاب هذا الذي لا يوقف نزيفًا، ولا يحمي حياة، ولا يرمم كرامة؟

لقد أصبح العجز سمةً عامة، والاستكانة سلوكًا مألوفًا، حتى بات الانكسار يبدو وكأنه قدرٌ لا فكاك منه. أضعنا المعنى الحقيقي للعزة، واستبدلنا الفعل بالاكتفاء بالمشاهدة، حتى تحوّلت كرامتنا إلى مفهوم مؤجل، وحلمنا الجماعي إلى انتظار طويل لا نعرف متى ينتهي.

والحقيقة المؤلمة أن هذا الجيل المُنهك، بما راكمه من خيبات، لا يملك وحده القدرة على انتشال الأمة من هذا القاع. فقد حُمّل

فوق طاقته، وتكاثرت عليه الهزائم حتى صار الصمود نفسه عبئًا. لذلك لا مفر من الاعتراف أننا نحن جزء من هذا الإخفاق، شئنا أم أبينا.

غير أن الأمل لا يُلغى بالكامل. فالتاريخ لا يتوقف عند جيل، ولا يُختزل في لحظة ضعف. لعل الخلاص يأتي مع أجيال جديدة، لم تتشرب ثقافة الخضوع، ولم تتعلم التعايش مع الهزيمة، أجيال قادرة على إعادة تعريف الكرامة، وبناء معنى مختلف للنهضة، أجيال تنهض من الرماد لا انتقامًا، بل وعيًا، ولا ضجيجًا، بل فعلًا.

★★★

# في حضرة الموت... نحمل الحياة:

في متاهـات هـذا الـشرق المثقل بالوجـع، تتراكم الأحـداث المؤلمة جنبًـا إلى جنـب مـع آثارها النفسـية والمادية. تبدو المـآسي وكأنها جزء مـن المشـهد اليومـي، تتكـرر بصـور مختلفة، وتـترك أثرهـا العميق في الذاكـرة الجماعيـة. ومـع كل محاولـة للنهـوض أو اسـتعادة التـوازن، يجـد الإنسـان العربي نفسـه أمام اختبـار جديـد، وكأن الزمن لا يمنحه فرصـة كافيـة لالتقـاط أنفاسـه. هنـا يـبرز السـؤال الوجـودي بهـدوءٍ موجـع: كيـف تسـتطيع هـذه الأرض أن تحتمـل كل هـذا القـدر مـن الألم المتواصـل؟ وكيـف يحافـظ القلـب العـربي عـلى قدرتـه عـلى الاسـتمرار، رغـم مـا أصابـه مـن إنهـاك وتعب؟

نعيـش في جغرافيـا لا تتيـح لنـا كثيرًا من المسـاحة للحلـم، فنكاد نصـل إلى النضـج حتـى نصبـح شـهودًا عـلى أزمـات تتجـاوز أعمارنـا. المشـاهد تتكـرر: أمهـات يرافقـن القلـق بصـبر ثقيـل، أطفال تتشـكل طفولتهـم عـلى وقـع فقـدٍ مبكـر، شـيوخ يسـتعيدون المـاضي بحسرة، وخرائـط تُعـاد صياغتهـا في غـرف بعيدة عـن تفاصيل الحيـاة اليومية للنـاس. في هـذا السـياق، يشـعر الإنسـان العـربي أحيانًـا بـأن كرامتـه تُناقـش وتُعـاد صياغتهـا دون أن يكـون حـاضرًا في النقـاش.

يسـتحضر تميـم البرغـوثي عمـق المأسـاة التاريخية بقولـه: «إذا ما جـاءك المغـولُ مـن شرقِ البـلاد، وجـاءكَ الفرنجـةْ من غربهـا، وجاءك

التتارُ من شمالها، وجاءك المنافقون من جنوبها... فاعلم أنك في قلبِ بلادِ الشام.» لم يكن هذا البيت استهلالاً شعرياً عادياً، بل كان مفتاحاً لـ «مَتحف الوجع» المتراكم عبر القرون. وجعٌ تداخلت فيه مرارة الغزو مع خذلان الخيانة، وإحساس الغربة مع مرونة الخنوع، وعظمة البطولة مع هزيمة الخذلان. إنه النص الذي يرى فيه العربي صورة تعبه الأزلي، ويستنشق منه رائحة رماد الذاكرة الجمعية.

ويُضيف البرغوثي تأكيداً على شرعية الارتباط الوجودي بالأرض «وطني ليس حقيبة، وأنا لست مسافر، إنني العاشق، والأرض حبيبة.» في تأكيد واضح على أن العلاقة مع الأرض ليست ظرفًا عابرًا، بل ارتباطًا وجوديًا، يتجاوز التصنيفات السياسية والإعلامية، ويؤكد أن الانتماء لا يُقاس بقوة اللحظة، بل بعمق الجذور.

أما الشاعر وليد الصراف، القادم من تجربة عراقية مثقلة بالتحولات، فيوسّع دائرة الرؤية لتشمل حال الأمة بأكملها، حين يقول: "أنا عربيٌّ وهذا الوجع أمتي، متى أراك كما يليق بك الجلال؟"وهو تساؤل لا ينطوي على يأس بقدر ما يعكس توقًا لاستعادة صورة أكثر اتزانًا وكرامة، بعد مسار طويل من التحديات والانكسارات

ويبقى صوت محمود درويش، شاعر الأرض المحتلّة ورمز الحنين السرمدي، الأكثر إيجازاً لـفلسفة البقاء في وجه الفناء: «نحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا.» وهي جملة تلخص

خلاصة صراع أمة تُقاتل لتنتزع حقها في لحظة صفاء من بحر العتمة. ويستمر في تأصيل المقاومة كفعل معرفي: «وطني يُعلّمني حديدُ سلاسلي، أن أمدّ يداً لنجمة، وأعيد مجد الفاتحين.». ففي زمنٍ تبدو فيه النجمة بعيدة كحلم مستحيل، لا نزال نمدّ أيدينا، لا طلباً للترف، بل لإعادة الكرامة المسلوبة، ولإقامة وطنٍ يتناسب مع عظمتنا التاريخية لا مع خرائط القوى التي تسعى للتقسيم.

ومع كل هذا، لا يسقط الأمل من وجداننا. لأننا، رغم إحاطة الموت بنا، نتمسك بالحق في حب الحياة. نحبها رغم أن الموت أصبح جارنا المقيم، ورغم تحوّل الخيام إلى مدن والمخيمات إلى أوطان مؤقتة اكتسبت صفة الدوام. نحبها لأننا ما زلنا نجد القدرة على الغناء والكتابة، وما زلنا نحتفل بميلاد كل طفل جديد، وكأننا نُعلن للعالم أن خيانته لنا لم تنجح في قتل الإرادة.

قد تستمر الصراعات، وقد تتبدل المواقف الدولية، وقد تتغير ملامح المدن... لكن الإنسان العربي لا يزال يحاول أن يحفظ توازنه، حاملاً ذاكرته وتجربته معه، دون أن يتخلى عن حقه في الأمل. إنه لا يدّعي التعافي الكامل، ولا ينكر عمق الجرح، لكنه يختار الاستمرار. وفي زمن أصبحت فيه الإنسانية شعارًا يُرفع، لا ممارسة تُعاش، يظل هذا التمسك الهادئ بالحياة شكلًا من أشكال المقاومة الصامتة، التي لا تحتاج إلى ضجيج لتُثبت وجودها.

★★★

# مرايا الأوطان المتعبة:

في بقاع من هذا العالم، تقف أوطانٌ كالمرايا القديمة؛ لا تعكس إلا صورًا شاحبة مما كانت عليه في زمنٍ مضى، ثم ما تلبث أن تُقنع نفسها بأن الركود استقرار، وأن السكون حكمة، وأن أي محاولة للنهوض خروج عن المألوف. في هذه الأمكنة، يتبدّل المعنى بهدوء، حتى يصبح التراجع خيارًا مريحًا لا يُسأل عنه.

تبدأ الأيام على إيقاع نشرات أخبار متشابهة، ومواكب رسمية ثقيلة، وخطابات تتكرر دون أن تترك أثرًا. في المدارس، تُقدّم الطاعة أحيانًا على الفهم، وفي الجامعات تُمنح الشهادات أكثر مما تُنمّى القدرات، بينما تميل المؤسسات إلى مكافأة الصمت ومعاقبة السؤال، لا عن سوء نية بالضرورة، بل خوفًا من المجهول.

تُعلن الرغبة في التقدّم، لكن الممارسة كثيرًا ما تُقصي صاحب الفكرة وتقرّب من يُجيد التكيّف. تُعقد مؤتمرات عن الإصلاح، بينما تضيق المساحات أمام من يملكون أدواته. تُشيّد مبانٍ كبيرة، لكنها تبقى بعيدة عن الناس، وتُرفع رموز لا تجد صدى حقيقيًا في الوجدان العام. يُتحدّث عن الابتكار بلغة جاهزة، ويُستحضر المستقبل دون قراءة متأنية للحاضر.

في مثل هذه البيئات، تتعثر المبادرات تحت ثقل الإجراءات، وتتآكل الأحلام عند بوابات الإدارات، ويغدو الانتظار الطويل جزءًا

مـن الحيـاة اليوميـة. يتأجل الكثـير: المشـاريع، والطموحـات، وأحيانًا الإحسـاس بالحياة نفسـها.

وعندمـا تتراكـم الإخفاقـات، يسـهل البحـث عـن تفسـيرات خارجيـة؛ يُسـتدعى القـدر، أو يُحمَّـل المـاضي والاسـتعمار مسـؤولية الحـاضر، وتُكسـر المـرآة بـدل التحديـق في الصـورة. لا لأن الصورة غير محتملـة، بـل لأن مواجهتهـا تتطلـب شـجاعة المراجعـة.

والحقيقـة أن مـا نـراه اليـوم هـو نتـاج مسـارات طويلـة مـن الخيـارات والسياسـات، لا نتيجـة عيـب فطـري في المجتمعـات. فالشـعوب التـي تضاءلـت آمالهـا لم تفعـل ذلـك اختيـارًا، بـل نتيجـة منظومـات أضعفـت الثقـة، وقلّصـت الفعـل، وفضّلـت الاسـتقرار الشـكلي عـلى التغيـير الحقيقـي.

إن النهـوض لا يُفـرض مـن الخـارج، ولا يتحقـق بالشـعارات وحدهـا. وهـو لا يبـدأ إلا حـين يُنظـر إلى المعرفة بوصفهـا قيمة، وإلى السـؤال باعتبـاره ضرورة، وإلى الكرامـة كجـزء لا يتجـزأ مـن الحيـاة العامـة. ومـن لا يرى في النهوض حاجة، سـيجد نفسـه عالقًـا في تكرار التجربـة ذاتهـا، بـين مـاضٍ مُسـتهلك وخطـاب لا يتجـدد.

ومـع ذلـك، لا يخلـو المشـهد من اسـتثناءات. فهنـاك دائمًـا أفراد مـا زالـوا يحتفظـون ببريـق الرغبـة في الفعـل، ويبحثون عـن فضاءات أوسـع لتحقيـق ذواتهـم، سـواء داخـل أوطانهـم أو خارجهـا. هـؤلاء لا يهجـرون المـكان بقـدر مـا يبحثـون عـن معنـى، وعـن بيئة تسـمح للجهـد بـأن يُثمر.

ويبقى السؤال مفتوحًا: كيف يمكن لأرضٍ أن تستعيد حيويتها إن لم يعد أبناؤها يرون في النهوض أولوية؟ وكيف يُبنى مستقبل إذا غابت القناعة بأن الكرامة ليست ترفًا، بل أساس أي حياة قابلة للاستمرار؟ هذه أسئلة لا تُطرح للإدانة، بل للمراجعة، لأن الإجابة عنها هي الخطوة الأولى لأي تحوّل ممكن.

★★★

# الأمة العربية... بين النثر والعاطفة والعلم والتجريد:

منـذ الجاهليـة وحتـى عصر المنصـات الرقمية، ظلّ العـربي مولعًا بالكلمـة. لا بوصفهـا أداة لنقـل المعرفـة فحسـب، بـل كأداة للتأثـير والتعبـير والامتـداد. مـن المجالـس إلى ميادين الحرب، ومـن الرثاء إلى الفخـر، ظـلّ الخطـاب العربي نثريّ الطابع، شـفويّ الانتشـار، وعاطفيّ البناء.

فاللغـة العربيـة، عـلى مـرّ العصـور، لم تكـن يومًـا لغـة محايـدة أو بـاردة. إنهـا لغـة تُشـبه أصحابهـا، لغـة حـارّة إذا أحبّـت، نازفة إذا حزنـت، جَزِلـة إذا افتخـرت، وجريحـة إذا رثـت. ولهـذا، فـإن الأمـة العربيـة، بـكل امتدادهـا الجغـرافي والتاريخـي، أمـة نثريـة الوجـدان، تميـل إلى الوصـف أكـثر مـن التحليـل، وتنجـذب إلى التأثـر أكـثر مـن التجريـد.

مـن أسـواق عـكاظ إلى صفحـات الجرائـد، ومن الخُطـب المنبرية إلى البيانـات الختاميـة للمؤتمرات، ظـلّ الطابع العاطفـي حاضرًا بقوة حيـث تُبنـى المواقـف عـلى الإيقـاع، وتُصاغ القضايـا بالبلاغـة، وتُقلب المفاهيـم بمنطـق الزخـم اللغـوي لا بمنهجيـة اسـتدلالية واضحـة. فالعـربي يُقنعـك بالصـورة لا بالبرهـان، ويغمـر الفكـرة بالمجـاز بـدلًا مـن تفكيكها.

وقد يكون هذا الميل إلى البيان والتصوير أحد أوجه الجمال في اللغة العربية، لكنه تحوّل، في السياق الحديث، إلى تحدٍّ حقيقي أمام موجات العلم، والرقمنة، والتجريد المفاهيمي. فالمشكلة لم تكن في قدرة اللغة العربية ذاتها، بقدر ما كانت في المسار التاريخي الذي أخرجها من قلب إنتاج المعرفة الحديثة، وحوّلها من لغة تفكير علمي إلى لغة شرح وتفسير لما يُنتَج في لغات أخرى.

وعلى خلاف لغاتٍ تطوّرت مفرداتها وأنساقها التحليلية بالتوازي مع الثورة العلمية، عانت اللغة العربية من انقطاع التراكم الاصطلاحي، وضعف التوحيد المفاهيمي، وهيمنة الترجمة الاستهلاكية على حساب الإنتاج المعرفي الأصيل. ونتيجة لذلك، لم تتشكل منظومات علمية متراكمة داخل اللغة نفسها، رغم امتلاكها أدوات اشتقاق وبناء قادرة نظريًاعلى ذلك.

ويتجلّى هذا الخلل بوضوح في تدريس العلوم باللغة العربية، حيث يطغى السرد والشرح الوصفي في كثير من الأحيان على البناء المفاهيمي، والتحليل الصوري، والاشتغال بالمعادلات والنماذج. لا لأن اللغة العربية عاجزة عن احتضان المفهوم العلمي، بل لأن العقل التعليمي لم يُدرَّب بعد على التفكير بها بوصفها لغة إنتاج معرفي، لا مجرد وسيط لغوي للشرح.

واللافت أن المثقف العربي، حين يُتاح له أن يكتب أو يتحدّث، حتى في الموضوعات الفكرية، ينزلق تلقائيًا نحو الأسلوب الأدبي، فتغدو النصوص أقرب إلى قصائد نثر منها إلى تحليل معرفي. وعندما

يخطـب المفكـر أو السـياسي أو الداعيـة، يخاطـب العاطفـة لا العقل، ويسـتدعي اللغـة لا الحجة.

ليـس العقـل العـربي عاجـزًا عـن التجريـد، بـل هـو ضحيـة لبيئة لا تُـربّي عليـه، فمناهجنـا، ومدارسـنا، وخطابنا العام، تكافـئ الخطابة والانفعـال أكـثر مـما تكافـئ التفكـير النقـدي والتحليـل الدقيـق. والمثقـف في عالمنـا، غالبًـا مـا يكـون خطيبًـا أكـثر منـه باحثًـا؛ يطـرح أفـكاره كـما يُلقـى الشـعر، ويزيّـن خطابـه بمفـردات مثـل «الهويـة» و«النهضـة» و«الكرامـة»، دون أن يؤطّرهـا ضمـن نسـق مفاهيمـي راسخ.

مـن هنـا، يلمـع الإبـداع العـربي في الأدب، والشـعر، والروايـة، والمقالـة الصحفيـة، بينـما يتراجـع حضـوره في الفلسـفة المنهجيـة، والعلـوم التجريبيـة، والنظريـات الاقتصاديـة. نحن أمـة إذا أرادت أن تفكّـر، شـعرت. وإذا أرادت أن تبرهـن، وصفـت. وإذا أرادت أن تُقنع، أثارت.

ومـع ذلـك، لا يُعقـل أن يُقـال إن العـرب غـير مؤهلـين للانخراط في عـصر العقلانيـة والعلـم. فصفحـات التاريـخ تزخـر بأسـماء لامعـة في الطـب والرياضيـات والكيميـاء والمنطـق. المشـكلة لم تكـن يومًا في المـوروث الثقـافي، بـل في غيـاب البيئـة التـي تُوجّـه اللغة مـن التعبير إلى التفسـير، ومـن الانفعـال إلى البنـاء المعرفي.

إن اللحظـة التاريخيـة الراهنـة تفـرض علينـا أن نعيـد النظـر في علاقتنـا باللغـة، أن نحـول مخـزون البلاغـة الهائـل إلى أداة للفهـم لا

للزينة، وأن ندرك أن المجد لم يعد في فصاحة المنبر، بل في دقّة المختبر، وأن «قولًا بليغًا» لم يعد كافيًا في زمن يتطلّب حجة واضحة، ومعادلة دقيقة، ونتيجة قابلة للتكرار.

الأمة العربية لا تحتاج إلى التخلّي عن عاطفتها، بل إلى تهذيبها بالعقل، وتوجيهها نحو مشروع نهضوي لا يبدأ بالخُطب، بل بإعادة بناء طريقة التفكير، ليكون الوجدان خادمًا للفكر، لا بديلاً عنه.

★★★

# تحرير العقل العربي من أسر التراث المغلق:

في زمن تتنازع فيه الأمة العربية بين اجترار الماضي وتيه الحداثة المربكة، يبقى محمد عابد الجابري (١٩٣٥--٢٠١٠) واحدًا من أبرز المفكرين العرب الذين تصدّوا بشجاعة وعمق لتفكيك البنية العقلية للعرب، وتحريرها من أسر الجمود الفكري والتبعية المعرفية. لم يكن مشروعه الفكري «نقد العقل العربي» مجرد اجتهاد فلسفي، بل محاولة تأسيسية لإعادة بناء العقل العربي ضمن قراءة نقدية متماسكة للتراث، استغرقت أكثر من عشرين عامًا من البحث والتحليل.

الجابري لم يتعامل مع «العقل» كأداة فردية محايدة، بل كمنظومة معرفية تكونت تاريخيًا تحت تأثير النصوص الدينية، والبنية اللغوية، والعلاقات السلطوية. وخلص إلى أن العقل العربي يعاني من تشوّه بنيوي، تغذّيه ثلاث سلط معرفية متداخلة: سلطة النص، وهيمنة البيان، وسطوة السلطة السياسية. وكانت النتيجة عقلًا تبريريًا، نقليًا، أكثر منه عقلًا نقديًا إنتاجيًا.

وفي تحليله البنياني، ميّز الجابري بين ثلاثة أنماط للعقل في التراث العربي الإسلامي وهي العقل البياني القائم على اللغة والنصوص، ويهيمن على الفقه والكلام، والعقل العرفاني الذي يعتمد الكشف والتصوف والتأويل الباطني، والعقل البرهاني وهو

العقل العقلاني الاستدلالي، المتمثل في خط ابن رشد، والمنطق الأرسطي.

وبحسب الجابري، فإن تخلفنا الحضاري لم يكن ناتجًا عن انقطاع المعرفة، بل عن هيمنة البيان والعرفان وتهميش البرهان، أي تهميش النمط العقلاني الصارم لصالح الذوق والسلطة والخرافة.

لكن الجابري لم يكن من أنصار القطيعة مع التراث، بل من دعاة نقد التراث من الداخل، وفرز مكوّناته بمنهج عقلاني لا انتقائي. رفض الثنائية المغلقة بين التغريبيين الذين يرون في الغرب خلاصًا، والسلفيين الذين يرفضون كل ما هو خارج النص. لقد سعى إلى صياغة «حداثة عربية»، تنبع من داخل العقل العربي ذاته، تستلهم من ابن رشد لا من الغزالي، ومن البرهان لا من الكشف.

وفي قراءته للعقل السياسي العربي، رأى محمد عابد الجابري أن المعرفة السياسية والدينية، في مسارها التاريخي الغالب، تشكّلت في سياق السلطة ولم تنفصل عنها انفصالًا مؤسسيًا واضحًا، بل جرى توظيفها في كثير من الأحيان لتبريرها وإضفاء الشرعية عليها. وبهذا المعنى، لم تتبلور المفاهيم السياسية المركزية، مثل الشورى والبيعة والخلافة، بوصفها أدوات نظرية مستقلة لتقعيد الحكم الرشيد أو مساءلة السلطة، بقدر ما خضعت لتأويلات سلطوية فرضتها موازين القوة والصراع السياسي.

ونتيجة لهذا المسار، تشكّلت ثقافة سياسية سائدة تميل إلى تقديس الطاعة، وتتحفّظ على النقد، وتُضعف موقع العقل المحاور

القـادر عـلى المسـاءلة والمشـاركة، بمـا أسـهم في إعاقـة نشـوء تقاليـد سياسـية قائمـة عـلى التعاقد، والمحاسـبة، والتداول السـلمي للسـلطة.

تميّـز الجابـري أيضًـا باختلافـه المنهجـي عـن مفكريـن معاصرين مثـل حسـن حنفـي. ففـي حـين اعتمـد حنفـي منهـج التأويـل الجـدلي التوظيفـي لإعـادة إحيـاء الـتراث، فضّـل الجابـري التحليـل الإبسـتمولوجي البنيـاني، سـعيًا إلى تفكيـك النسـق المعـرفي ذاتـه، لا مجـرد تجميلـه أو تكييفـه.

اليـوم، تبـدو أطروحـات الجابـري أكـثر راهنيـة مـن أي وقـت مـضى، في ظـل تصاعـد التوتـرات الفكريـة والدينيـة والسياسـية. فدعواتـه لإصـلاح التعليـم، وتحديث الفكـر الديني مـن داخله، ونزع القداسـة عـن المـوروث الجامـد، تمثّـل خارطـة طريق لنهضـة عقلانية طـال انتظارهـا.

لقـد آمـن الجابـري أن بدايـة النهـوض لا تكون في تغيـير الأنظمة فقـط، بـل في إعـادة بنـاء الذهنيـة العربيـة مـن الجـذور. مشروعه لم يكـن ضـد الدين، بـل ضد توظيفـه في تكريس القهر. ولم يكـن حداثيًا مسـتلبًا، بـل عقلانيًـا منحـازًا للعـرب وهم يدخلـون العـصر بعقولهم لا بأرديـة غيرهم.

وفي الختـام، استشـهد بمقولتـه "إذا لم نحـرر العقـل العـربي مـن عقـدة المـاضي، فلـن يكـون المسـتقبل إلا امتـدادًا لـه... في صـور أكـثر بؤسًا.»

## بلاد العرب أوطاني... هذا ما تبقّى من الكبرياء:

في زمنٍ تتهافت فيه بعض المجتمعات على صناعة الهوية من الأطباق السطحية والشهرة الرقمية العابرة، يغيب عن الذاكرة أن ثمة أممًا عربية، لا تزال جذورها ضاربة في عمق المجد ولا تحتاج إلى ترويج زخرفي لتروي سيرتها. إنها أمم يكفيها أن تصمت، ليتحدث عنها الحجر، والنقش، والنهر، والسجل التاريخي للإنسانية.

في طليعة هذه الأمم يقف اليمن؛ ليس بوصفه رقعة جغرافية منهكة، بل ذاكرة متفردة تسير بين الناس بعباءة الكبرياء التاريخي. إنه مهد مملكة سبأ، وصانع سد مأرب، وموطن القوافل التي لم تحمل البخور فحسب، بل حملت المعرفة، وأصل الخط العربي. حضارته لم تكن مستوردة، بل فطرة حضارية مغروسة، وهو البلد الذي خصه الوحي بشهادة قرآنية خالدة: "بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفور"، ومصدر الحكمة التي قال عنها النبي: "الإيمان يمانٍ، والحكمة يمانية»، فقدم اليمن دوماً نفسه بل بصفحات من العزّ، وقوافل من الفصاحة، وحكايات ما زالت تنبت على جدران الزمان.

ويأتي العراق... الأرض التي شهدت فجر البشرية، حيث بدأ الحرف يمشي على الطين، وحيث وضع حمورابي أول قانون مدوّن، وغنّت ملحمة جلجامش للخلود الوجودي. من سومر وبابل وآشور، إلى بغداد التي تحولت في عصرها الذهبي إلى بيت الحكمة

وسماء للعلم اللامحدود، ظل وادي الرافدين يعلّم العالم كيف تُبنى المدن، وكيف تُكتب القوانين، وكيف تُصاغ الأسئلة الفلسفية الكبرى. هناك، يتكلم الحجر قبل الإنسان، ويشهد النهران أن المجد الحقيقي يُقاس بما يبقى من أثرٍ في اللغة والعلم والفكر، لا بما يعلو من أبراج.

ولا ننسى السودان، العملاق الأفريقي الهادئ، الذي يسير بتؤدة كأن النيل يُؤنس مساره. في جنوبه قامت حضارات عظيمة مثل كرمة ومروي ونبتة، وممالك سودانية خالصة حكمت مصر ذات يوم. لم تكن أهراماتهم بحجم الفراعنة، بل متواضعة في حجمها، جليلة في كبريائها؛ لأن الكبرياء الأصيل لا يحتاج إلى ارتفاع شاهق ليُعلِن عن نفسه.

أما الصومال، فقصته لا تبدأ في المجاعة ولا تنتهي عند القرصنة. هذا البلد كسا الكعبة يوماً، وأطعم الجزيرة من عنبره ولبانه. عرف التجارة الدولية قبل أن تُرسم خرائط الاقتصاد الحديث، وحافظ على عزة النفس في أشد الظروف.

وفي أقصى الغرب، تقف موريتانيا، بلاد المليون شاعر وحصن اللغة العربية الحصين. اللغة هناك ليست مجرد زينة، بل نجاة وضرورة وجودية، والشعر ليس ترفًا، بل عماد الهوية والذاكرة. فطفل موريتاني قد يُلقي بيتاً من الجاهلية أبلغ وأكثر فصاحة من خطاب بعض ساسة هذا العصر.

وفي خضم هذا الرصيد التاريخي، نجد أنفسنا في المقابل أمام

تهافت ثقافي نحو اختزال الهوية الوطنية في أطباق الطعام كالفتوش والفلافل، وكتابة الرواية الوطنية في صور تُنشر على وسائل التواصل الاجتماعي، بدلاً من أن تُسجل في دفاتر التاريخ. لقد أصبح المجد يُقاس بعدد المشاهدات والتصفيقات الافتراضية، وبات "الترند» فتحًا مبيناً يُحتفى به كأنه نصر قومي.

لقد وصلنا إلى جيل يرى في أغنية عابرة ملحمة وجدانية، وفي وصلة رقص مادة للنقاش العام، ويكتفي بمقطع قصير و»هاشتاغ» موفق ليرفع الرايات. فهل يُعقل أن نفتّش عن الفخر في موائدنا الاستهلاكية، بينما يمشي التاريخ حيًا في اليمن، ويهمس الحجر في العراق، وتفيض الكبرياء من السودان، وتشدُّ اللغة عصبها في موريتانيا؟

المجد يُقاس بما تُخلّفه الشعوب من أثر في الفكر، واللغة، والتعليم، والقيم، لا بكمية الطعام على المائدة. ثمة أمم تُدوِّن اسمها بالحبر والحكمة، وأخرى تُسجِّله في قوائم الطعام العابرة.

★★★

# العراق: من فجر البشرية إلى وهجٍ لا ينطفئ، وإن خبا:

في قلب الأرض، حيث تلاقت مياه دجلة والفرات بالخصب، وامتزجت النار بالفكر، وُلد العراق كـ«بداية الحضارة المدونة». لم يكن وطنًا عادياً، بل المسرح الأول لخطوات الإنسان على طريق الحضارة. في العراق سُطّرت على الطين أولى حروف الوعي، وتحوّل التراب إلى ألواح ناطقة بالحكمة والأسطورة.

في أرض سومر، وُلدت الكتابة الأولى، حيث أبدع العقل العراقي الخط المسماري، مسجلاً بذلك انتقال البشرية من عصر الرواية الشفوية إلى عصر التدوين والتوثيق. في هذا الوطن، ابتكر العقل العراقي العجلة، فبدأت حضارة الحركة والتقدم. ومن هنا وُلد أول عطر، وسُمعت نغمة أول قيثارة، وكُتبت ملحمة جلجامش، التي مثلت أول تعبير عن القلق الوجودي الإنساني.

كما كان العراق أحد مواطن الوحي الكبرى كما كان مهدًا للعلم؛ ففي مدينة أور، وُلِدَ سيدنا إبراهيم الخليل، عليه السلام، أبو الأنبياء، ومنها انطلقت رسالة التوحيد الأولى.

ومع مجيء الإسلام، لم يكن العراق هامشًا، بل القلب النابض للخلافة. ففي أرضه يرقد الإمام علي بن أبي طالب، وإلى جواره أبناؤه

في كربلاء، حيث سطّروا معاني الفداء والكرامة والعدل. في الكوفة والبصرة، تأسست قواعد اللغة والفقه والنحو، وفي بغداد أشرقت الحضارة الإسلامية كما لم تفعل في مكان آخر. كانت بيت الحكمة وقبلة العلماء، ومحطة تلاقح الفلسفة اليونانية مع رياضيات الهند، فخرج منها من غيّر وجه العالم في الطب، والهندسة، والمنطق. لقد كانت بغداد فكرة مزدهرة يتجاور فيها الجميع، وتنمو في أسواقها ثقافة العقل والجدل، لا الخوف والانغلاق.

واليوم، بعد كل ما جرى، لا يزال العراق صامدا رغم جراحه. فالحروب التي مرت لم تكن كافية لكسر روح تمتد جذورها لآلاف السنين. العراق قد ينزف، لكنه لا ينهار أبداً. وفي خضم هذا كله، بقيت المرأة العراقية شاهدة على المأساة والنهضة، من شبعاد، أميرة أور، إلى زها حديد، سيدة العمارة العالمية، حاضرةً بقوة في صناعة الحياة وحماية البيت والوطن.

العراق ليس فقط أول من كتب التاريخ... بل أول من علّمنا أن الشعوب العظيمة تمرض، لكنها لا تموت أبدًا.

★★★

# من الأردن إلى العرب... غضب بنكهة محبة!

في الفترة الأخيرة، انتشر تقرير عالمي تصدّر فيه الأردن المرتبة الأولى او الثانية عالمياً بين «أكثر الشعوب غضباً». البعض أخذ الموضوع بمزح وسخرية، والبعض الآخر أخذها بجدية، وكأنه شهادة رسمية تقول: «الأردني... عصبي رسمي!»

الحياة ليست سهلة، والضغوط اليومية كبيرة. الوضع الاقتصادي يزيد التوتر، والزحمة تُكمله، والسياسة همّ حاضر في التفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة. وحتى فنجان القهوة الذي ينسكب قبل أول رشفة قد يكون القشة التي تكسر ظهر البعير. أضف إلى ذلك الفواتير، والإشارات الطويلة، والضرائب التي تجعل المزاج يرى الحياة كلها بلون كحلي... على أحسن تقدير.

وإن كان الأردني يغضب بسرعة... فإنه يضحك بسرعة أكبر. غضبه مؤقت، وقلبه أبيض. قد يزعل من موقف، لكنه لا يزعل من الناس. قد يرفع صوته، لكنه بعد ثوانٍ يعتذر ويقول: «خلص يا زلمة، مش قصدي».

والأردن ليس وحده على خارطة الشعوب «الأكثر غضبًا». العراق أيضًا؛ بلد عاش حروبًا وضغوطًا متراكمة، ومن الطبيعي أن تكون مستويات الغضب فيه عالية، ومع ذلك يبقى العراقي من أكثر الناس قدرة على المزاح وسط التحديات. كذلك اللبناني

يمتلك قدرة نادرة على أن يكون غاضبًا ويضحك في اللحظة نفسها. وحتى المغرب، رغم هدوئه الظاهر، وضعت تقارير شعبه ضمن من يعبّرون عن مشاعر غضب مرتفعة، ومع ذلك يبقى المغاربة مشهورين بخفة دمهم وروحهم الجميلة.

يبدو أننا أمام غضبة عربية عامة، لكنها من النوع اللطيف؛ غضبة فيها صدق وعفوية. غضب مرتبط بثقل العيش تحت الضغط، لا بالكراهية أو العنف. غضب يعكس حياة يومية مليئة بالتحديات، وبالإرادة في الوقت ذاته. فالشعوب العربية تغضب لأنها مليئة بالإحساس، لأنها معنية بأوطانها، وتريد لها مستقبلًا أفضل.

الغضب العربي ليس غضب طبع أو نزق، بل غضب ظرف وضغط وتحديات. هو غضب إنسان يرى أشياء كثيرة تحتاج إلى التغيير. غضب «غيرة على الحياة» أكثر منه عصبية. ومع ذلك، هناك ما لا تقيسه الأرقام ولا تحصيه الإحصاءات: فالأردني، والعربي عمومًا، قد يغضب لكنه لا يحقد، يرفع صوته لكنه لا يؤذي، ينفعل لحظة ثم يبتسم بعد دقيقة، يستفزه الظلم لكنه يلين بسرعة، يغضب لأنه يحب، لا لأنه يكره. وفي النهاية، نحن شعوب تغضب بصدق... لكنها تحب بصدقٍ أكبر، وهي حقيقة لا تُقاس باستبيان، ولا تُختزل في تقرير.

★★★

# الباب الثالث

## تحديات النهضة والإصلاح

# الأزمة البنيوية في العالم العربي:

إن ما يشهده الفضاء العربي والإسلامي في المرحلة الراهنة يتجاوز كونه اضطرابًا سياسيًا عابرًا، ليعكس حالة تراجع بنيوي أعمق تمسّ الجغرافيا والوجدان معًا. تتعرض الكيانات المدنية لضغوط متراكمة، وتعيش المجتمعات حالة إنهاك طويل الأمد، بينما تتآكل الكرامة الإنسانية تدريجيًا تحت وطأة الأزمات المادية والمعنوية. وفي ظل هذا السياق، تتعثر مسارات التنمية، وتفقد مشاريع النهوض قدرتها على الاستمرار، لتتكرر مشاهد المعاناة من فلسطين إلى السودان واليمن وسوريا والعراق وليبيا، بأشكال مختلفة ولكن بجوهر واحد.

هذا التراجع لم ينشأ فجأة، ولا يمكن فصله عن مسار تاريخي طويل من التراكمات الهيكلية، التي شملت ضعف العمل المؤسسي، وتراجع منظومات القيم، وضعف الالتزام العملي بالمبادئ الكبرى. وقد انعكس ذلك في هشاشة البنية السياسية، واختلال العلاقة بين الخطاب والممارسة، حيث طغت الشعارات على السياسات، وغلبت اللغة التعبوية على الفعل المنظم. ومع الوقت، جرى اختزال كثير من المعاني: فالدين حُصر في طقوس منفصلة عن أثرها الأخلاقي، والوطن اختُزل في شعارات آنية، والكرامة أُرجئت إلى مستوى التمنّي بدل أن تكون متأصلة.

لم يقتصر هذا الخلل على مستوى النظم، بل امتد إلى البنية الاجتماعية والنفسية، فأنتج حالة من الاغتراب التدريجي للوعي الجمعي، وتراجع الحس بالمسؤولية المشتركة. ومع تكرار الأزمات، نشأ نوع من التكيّف القسري مع واقع قاسٍ، حيث بات الظلم مشهدًا مألوفًا، وتحوّل الصمت إلى آلية حماية، وأصبح الخوف جزءًا من الحياة اليومية.

في هذا المناخ، تراجع الحلم بوصفه دافعًا للفعل، وضاقت مساحات الأمل العملي، ليحل محلها في أحيان كثيرة صمت حذر، أو انكفاء فردي، أو بحث عن مسارات نجاة شخصية. كما أصبحت الأصوات النقدية محاصرة بين سوء الفهم، أو الاتهام، أو التهميش، مما زاد من هشاشة المجال العام، وأضعف الحوار المنتج وأدى إلى انتشار البلادة كاستجابة دفاعية ضد التراكم الصادم للأحداث.

لكن، في خضم هذا الركام، تكمن قوة مقاومة ترفض الاستسلام النهائي. فالأمة التي أنتجت قامات فكرية وجهادية وإصلاحية، لا تزال تمتلك مخزوناً من الطاقات كامناً كافياً لإعادة الإطلاق والبدء من جديد. ففي تفاصيل الحياة اليومية، وفي نظرة الأطفال، وفي سعي الشباب رغم الإحباطات المتوالية، تتوهج ومضات صغيرة تذكّر بأن الانحدار ليس مصيراً جبرياً، بل هو حالة عارضة يمكن تجاوزها بالإرادة الواعية والموجهة.

إن استعادة الكرامة تبتدئ حتماً باستعادة الإيمان بجدوى الفعل، وبأهمية الحقيقة الموضوعية، وبقيمة العمل المتقن.

لا يكفي رثاء الذات أو الإدانة اللفظية للظلام، بل يجب إعادة بناء العقل العربي على أسس النقد المنهجي لا التبعية، والجهد المستمر لا التواكل، والعمل المنتج لا التهويل الخطابي. فالأمم لا تنهض بالبكاء، بل بالتصميم الاستراتيجي. ولا تُبعث بالخطابة، بل بالمسؤولية المباشرة. والكرامة لا تُستحضر في لحظات العجز فقط، بل تُصان وتُعزز في كل تفاصيل الحياة اليومية.

إن ما يحدث ليس قدراً محتوماً... بل هو استدعاءٌ وجودي صارخ للنهضة. والسكوت عن هذا الحال ليس حياداً موضوعياً، بل هو انخراط في دائرة الجريمة. والذين يمتنعون عن الحلم بالنهوض، هم الذين يمنحون الانحدار شكله الأخير المستقر. فلنوظف ما تبقى من ضوء، ليس للرثاء، بل لتمكين هذا الوطن من فرصته التاريخية الأخيرة نحو الخلاص.

★★★

# السقوط في الفخّ اللامرئي:

في خضـمّ السـباق المحمـوم نحـو الحداثـة الاسـتهلاكية، وتحـت وطـأة الانبهـار المتزايـد بالمظاهـر البراقـة، يجـد كثـير مـن أبنـاء الأمة أنفسـهم عالقـين في فـخّ لامـع يخلـو مـن القسـوة الظاهـرة. إنـه فـخّ لا يرتبـط بحـدود جغرافيـة، بـل بمنظومة قيمية تُسـوّق لـنمط حياة لامـع مـن الخـارج، هـشّ في العمـق، ومجـوّف في الأثـر المعنـوي.

المشـكلة الجوهريـة ليسـت في التمـدّن المـشروع، ولا في النمـو العمـراني أو الاقتصـادي الـضروري، بـل في تحويـل الصـورة إلى جوهر، والمظهـر إلى معيـار مطلـق للقيمـة. عندمـا يُختـزل التقـدّم الحضاري في ارتفـاع الأبـراج الزجاجيـة، وتُقـاس القيمـة الفرديـة بــما يُسـتهلك ويُرتـدى، لا بمـا يُنتـج ويُبتكـر، يغـرق المجتمـع ببـطء في وهم صامت لا مـرئي، ينهـش روحـه بهدوء.

في السـنوات الأخـيرة، تزايدت وتيرة الانجراف نحـو هذا النموذج الاسـتهلاكي لـدى شرائـح واسـعة. وبينما يسـعى البعض بصـدق لفرص أفضـل، وهـو أمـر مـشروع، فـإن كثيريـن انسـاقوا إلى قوالـب ثقافيـة سـطحية تُكـرّس الشـكل عـلى حسـاب المضمـون، ويظهـر ذلـك في طبيعـة الخطـاب، وفي صناعـة المحتـوى، وفي نمـط العيـش ذاتـه. إذ يُـروَّج لنمـوذج اسـتهلاكي ناعـم يجمّـل الحيـاة مـن الخـارج، لكنـه يُفرغهـا مـن المعنـى الحقيقي، ويُختزل الجمال في الجسـد، والنجاح في

الظهور الإعلامي، والكرامة في الاقتناء المادي لا في الإنجاز الفكري.

تبدو بعض الحواضر العربية الكبرى اليوم عامرة ومزدهرة في مظهرها العمراني والاستهلاكي، غير أنّ هذا الازدهار لا يوازيه دائمًا عمق مماثل في الحوار الفكري أو في تشكّل الهوية الثقافية. فخلف الواجهات اللامعة، يلوح أحيانًا توتّرٌ غير معلن بين الأصالة والمعاصرة، وبين الموروث الثقافي العميق وبين تمثيلات سطحية تُسوَّق بوصفها حداثة، أو تُختزل في «ترند» عابر سريع الزوال. والمقصود هنا ليس ذمّ التحضّر ولا التقليل من أهمية التطور العمراني أو الانفتاح، بل نقد النزعة التي تختزل الإنسان إلى كائن يُرى ويُستَعرض ويُستهلك، دون اهتمامٍ موازٍ بما يُفكَّر فيه، وما يُنتَج معرفيًا، وما يُبنى على المدى الطويل في الوعي والقيم.

حين تتبنى المجتمعات هذا النموذج دون غربلة نقدية، تُختزل تطلعاتها المستقبلية إلى الوصول الى صورة خارجية لا تشبهها بالضرورة. تبدأ بالتقليد دون مراجعة، وتنبهر دون وعي، وتنسى أنها تملك رصيدًا حضاريًا وثقافيًا عميقًا قادراً على إنتاج نموذج حضاري متّزن غير تابع.

إن السقوط في هذا الفخّ لا يتم بقرار مفاجئ، بل يتسلل ببطء من الشاشة، ومن اللغة الرائجة، ومن تدهور الذوق العام. يبدأ حين يصبح معيار القيمة الإنسانية بما يملك الفرد لا بما يُفكر، وحين يُربّى الطفل على ثقافة الانبهار لا الفهم، وعلى الامتثال السريع لا التمييز النقدي. يبدأ عندما تتحول الحرية المطلقة إلى شكل من

أشـكال الاسـتهلاك المتـاح، وتصبـح الهويـة مجـرد واجهة تسـويقية لا جـذرًا حيًّـا نابضًـا بالتاريخ والموقـف والوعي.

تكمـن الخطـورة الكـبرى في التطبيـع الاجتماعـي مع هـذا الفراغ المـادي، في قبـول الزيـف كمظهـر للنجـاح، وفي تحوّل التقليـد الأعمى إلى نمـط حيـاة مسـتقر. فالرفـاه المـادي بـلا فكـر عميـق، هـو مجـرد ضجيـج فـارغ. والحداثـة المبتورة بلا جـذور أصيلة، هي زبـدٌ يعلو ثم يتـلاشى. والتقليـد الأجـوف بـلا وعـي، هو انسـحاب ناعـم وخطير من مـشروع النهـوض الحضاري.

المشـكلة لا تكمـن في وجـود نمـاذج عالمية سـائدة، بل في نسـخها دون نقـد، واتباعهـا دون وعي بما يتناسـب مـع خصوصيتنا. والتحدي الماثـل ليـس في الانغـلاق الرافـض لـكل جديـد، بـل في الفـرز النقـدي الـذكي؛ أن نأخـذ مـا يتناغـم مـع قيمنـا الراسـخة، ونـترك مـا لا يليـق بذاتنـا الحضارية.

لقـد آن الأوان لاسـتعادة المناعـة الثقافية، ليس مـن باب الرفض العدمـي للتقـدم، بـل من بـاب الفهم العميق والمسـؤولية الإنسـانية. آن الأوان أن نرى كل نمط حياة جديد كـخيار قابل للتفكيك والتقييم، لا كـحقيقة مُسـلّم بهـا، فالحيـاة لا تُقـاس بمـا يُعرض على الشاشـات، بـل بمـا يُنجَـز فعليًـا عـلى أرض الواقع ولا تقـاس بما نسـتهلكه، بل بما نصنـع، ونفكّـر، وبمـا نعيشـه بصـدق وبكرامـة و بوعـي لا يُغريه البريـق الـز ائف. .

## أزمة الهوية والانتماء في الدولة الحديثة:

يبدو أننا دخلنا مرحلة من أزمة التعريف الفلسفي للوطن، حيث تلاشت الحدود الدقيقة بين بداياته ونهاياته. أصبحنا نسكن بيوتاً نحاول أن نُقنع أنفسنا بأنها أوطان، نُغلق الأبواب ونُحكم الستائر، ونُردد أن الاستقرار يكمن في مجرد عنوان ثابت. لكن يظل شيء في الروح متأرجحاً ومغترباً، يبحث عن جذور وجودية أعمق من المكونات المادية كالأسمنت والجدران.

إن تأثيث الغرف وغرس النباتات والاحتفال بالروتين المألوف لا يُغني عن الحقيقة الجوهرية بأن الوطن ليس البيت، ولا الدخل المنتظم، ولا مجرد وثيقة رسمية. الوطن يمثل بُعداً وجودياً أعمق.

إنه ذلك الإحساس اليقيني بأنك كائن مرئي ومُقدَّر، أن لك قيمة تتجاوز منفعتك الاقتصادية، ولا تُختزل في وظيفتك، ولا تهددها ورقة بيروقراطية. هو الشعور الداخلي بالانتماء، ليس لمجرد الميلاد في المكان، بل لأن الكيان السياسي والاجتماعي يعترف بك كإنسان ذي قيمة متأصلة.

وعندما نتجوّل في الشوارع، ونقف في طوابير الاستهلاك، ونرى الرفوف ممتلئة والإعلانات متفائلة، قد يبدو المشهد مطمئنًا اقتصاديًا. لكن السؤال يظل حاضرًا: هل يكفي هذا وحده ليصنع وطنًا؟ وهل تُقاس قيمة المكان فقط بوفرة السلع وسهولة الشراء؟

حين تصبح العلاقة بين الفرد والدولة علاقة خدمات واستهلاك فقط، يبهت المعنى الإنساني، ويصبح المواطن أقرب إلى مستخدم دائم منه إلى شريك في المصير.

في مثل هذه البيئات، يقف الناس لتأمين احتياجاتهم الأساسية، لكنهم يتساءلون في داخلهم إن كانوا يقفون على أرض تنصت لقلقهم الإنساني، أم على أرض تتعامل معهم كبيانات إدارية. فليست كل دولة تحمل اسمًا وعلمًا ونشيدًا هي بالضرورة وطنًا بالمعنى العميق. الدولة إطار تنظيمي، أما الوطن فهو ذاكرة مشتركة، وتاريخ حي، وشعور يتكوّن عبر التفاعل لا عبر التلقين.

ثم تظهر تلك المدن... مدن الملح الاستهلاكية. لامعة، شاهقة الارتفاع، فاخرة التشييد، لكنها تفتقر إلى النبض الإنساني. مدن نبتت فجأة فوق رمال المصالح الرأسمالية، وتضخمت على حساب البُعد الإنساني والاجتماعي. هي مدن تبهرك بالحداثة العمرانية، لكنها تُفزعك بخوائها الوجودي. لا تحتضن ذاكرتك، ولا تعترف بملامحك الثقافية، ولا تبالي بقصصك الخاصة. هي في جوهرها مدنُ عبور مؤقت، لا مدنُ انتماء جذري.

إن ما خفي... كان دائمًا أعظم وأخطر. ليس في الأسرار السياسية فحسب، بل في جوهر الناس أنفسهم. في التعب الصامت المستديم، في الخوف غير المُصرح به، في اليأس الذي يتخفى تحت قناع الرضا الاجتماعي. نحن لا نواجه فقط أزمة دولة تنظيمية، بل أزمة شعور عميقة في تعريف معنى «الوطن»، وأزمة في القدرة

عـلى تصديـق أننـا ننتمـي فعـلاً إلى كيـان ذي معنـى.

فالمسـكن وحـده لا يمنـح الطمأنينـة، والوفـرة لا تضمـن الأمـان، والحداثـة العمرانيـة لا تصنـع هويـة تلقائيًـا. وما يظهر على السـطح، مهـما بـدا مسـتقرًا، لا يكشـف دائمًـا عـن كل مـا يجـري في العمـق. فهنـاك أسـئلة مـا زالت مفتوحة، ومشـاعر لم تجد لغتهـا بعد، ومعنى للوطـن مـا زال قيـد البحـث، بهـدوء، دون ضجيـج، ودون أحـكام نهائية.

★★★

# تكفير العلماء والمفكرين العرب:

في سياق التحليل التاريخي والثقافي، تبرز ظاهرة إقصاء العلماء والمفكرين، وأحيانًا تكفيرهم، بوصفها واحدة من الإشكاليات العميقة التي رافقت مسار الفكر في التاريخ العربي الإسلامي. فقد لعبت النخب العلمية والفلسفية دورًا محوريًا في تطوير المعرفة الإنسانية، غير أن مسيرتها لم تكن دائمًا محاطة بالقبول، بل اصطدمت في كثير من المراحل بممانعة داخلية رأت في الاجتهاد العقلي تهديدًا للسائد والمألوف.

تكرر المشهد عبر التاريخ من ابن سينا إلى ابن رشد، ومن ابن الهيثم إلى المعري بصور شتى كالسجن، والنفي، وحرق الكتب، والطمس المتعمد للأسماء، والتحريض على القتل. لم تكن التهم موجهة ضد خيانة أو فساد مالي، بل كانت جريمة التفكير الحر والسعي لفهم الدين والوجود عبر منهجية العقل النقدي. هذا الفكر الذي كان رافعة لإنسانية الأمة، تم إقصاؤه ومعاقبته لتجرئه على كسر أسوار الصمت العقائدي.

عانى رواد الفكر والعلوم أمثلة قاسية، فمثلا ابن الهيثم، رائد علم البصريات والمنهج التجريبي، سُجن. بينما أحرقت كتب ابن رشد، أعظم شارح لفلسفة أرسطو، واتُّهم بالزندقة لمحاولته التوفيق المنهجي بين الحكمة (الفلسفة) والشريعة. في حين وصف ابن سينا

بـإمام الملحديـن، رغم أن نتاجه الطبي والفلسـفي ظـل مرجعاً عالمياً لقـرون. كذلـك الفـارابي، الكنـدي، والـرازي؛ كلهـم تعرضـوا للإقصـاء لأنهـم آمنـوا بأن الديـن لا يتناقـض جوهرياً مع العقل، وأن الفلسـفة هـي وسـيلة لتعميق فهـم الوحي.

إن هـذه الوقائـع لا تمثـل حـوادث معزولـة، بـل تشـكل نمطاً تاريخيـاً مُتأصـلاً يتجدد كلما حاول العقل أن يتحـرر من ركام التقليد. لم يكـن التكفـير في جوهـره مسـألة دينيـة خالصـة في كل الأوقات، بل كان أداة سياسـية وثقافيـة فعالـة لإسـكات الأصـوات المغايـرة. وقـد أدى هـذا النهـج إلى تعميـق الـشرخ بـين مسـاري «العلـم الشرعـي» و«العقـل العلمـي»، تـاركاً أثـراً قاتمـاً عـلى البنيـة المعرفيـة والثقافيـة العربيـة. والمفارقـة التاريخيـة تكمن في أن أوروبا كانـت تبني نهضتها عـلى ترجـمات أعمال هـؤلاء المفكريـن، بينما كانـت عواصمهم تحرق كتبهـم وتطاردهم.

إن العنـف الفكـري، بأشـكاله المختلفـة، لم يكـن يومًـا مدخـلًا لبنـاء الحضـارات، بـل عائقًـا أمـام تطورهـا. فالتضييـق عـلى الأسـئلة، ومصـادرة الأفـكار، وإقصـاء المفكريـن، تـؤدي إلى انكـماش المجـال المعـرفي، وإلى تعطيـل القـدرة عـلى التجديد. والمؤسـف أن بعض هذه الآليـات لا تـزال تتكـرر في صـور حديثـة، مـن خـلال تهـم فضفاضـة، مثـل «ازدراء الأديـان» أو «خـدش الحيـاء العـام» أو «التحريـض على الفتنـة»، تُسـتخدم أحيانًـا لتقييـد حريـة التعبـير أو محـاصرة النقـد، وإن اختلفـت السـياقات والأدوات.

ويكشف هذا كله عن توتر مستمر في العلاقة بين السلطة والحرية الفكرية، وبين الدين بوصفه قيمة روحية وأخلاقية، وبين توظيفه كوسيلة للضبط الاجتماعي أو الإقصاء. فالدين، في جوهره، لا يتعارض مع العقل، لكن الإشكال يظهر حين يُختزل في قراءات أحادية تُغلق باب الاجتهاد.

إن استحضار هذه التجارب لا يهدف إلى استدعاء الماضي بروح رثائية، بل إلى التنبيه إلى مخاطر تكرار الأنماط ذاتها. فبناء مناخ فكري صحي يتطلب الاعتراف بالتعددية، واحترام النقد المنهجي، والنظر إلى العقل بوصفه أداة لفهم أعمق، لا خصمًا للإيمان. ولن تكون هناك نهضة معرفية أو حضارية مستدامة دون فضاء يسمح بالاختلاف، ويصون كرامة المفكر، ويُبعد عن العلماء سيف التخوين، لصالح مشاركة حرة ومسؤولة في إنتاج المعرفة والمعنى.

★★★

## تأملات في ثقافة البادية:

عند مقاربة التاريخ العربي من زاوية جغرافية وأنثروبولوجية، تظهر اختلافات واضحة في المنظومات القيمية التي تشكّلت تبعًا للبيئات الطبيعية والاقتصادية. ففي بعض التكوينات البدوية التي نشأت بعيدًا عن المراكز الحضرية والإنتاجية المستقرة، تبلورت أنماط خاصة من القيم الاجتماعية، تأثرت بظروف الندرة، والتنقل، وعدم ثبات الموارد.

في تلك السياقات، لم تحظَ الحِرَف والمهن اليدوية دائمًا بالمكانة ذاتها التي عرفتها المجتمعات الزراعية أو الحضرية، إذ ارتبط العمل اليدوي في بعض الأحيان بمعاني المشقة والحاجة، لا باعتباره مصدر فخر اجتماعي. وقد انعكس ذلك في تصورٍ ثقافي فضّل مظاهر القوة والقدرة على الحماية والغلبة، بوصفها وسائل أساسية للبقاء في بيئات قاسية وغير مستقرة.

قبل الاندماج الواسع مع منظومات التمدّن، والتجارة المنظمة، والدولة، تشكّلت المكانة الاجتماعية في بعض البيئات حول مفاهيم ترتبط بالغزو والسلب والحماية وتوزيع الغنائم، أكثر من ارتباطها بالإنتاج المستدام أو الزراعة أو الصناعة. لم يكن هذا بالضرورة اختيارًا أخلاقيًا واعيًا، بل استجابة لواقع اقتصادي هشّ، حيث كانت السيطرة على الموارد المتنقلة، وإن كانت للغير، تُعد وسيلة

بقـاء أكـثر مـن كونهـا نمطًـا إنتاجيًا طويـل الأمد.

ومـن المهـم التأكيـد أن هـذا التحليـل لا يهـدف إلى التعميـم أو اختـزال التجربـة البدويـة في صـورة واحدة، ولا إلى التقليـل من قيمها الإنسـانية. فالباديـة، مثـل غيرهـا مـن البيئـات، أنتجـت منظومـات أخلاقيـة ولغويـة وشـعرية بالغـة الـثراء. غـير أن فهـم هـذه البنـى القيميـة يقتـضي وضعهـا في سـياقها التاريخـي والاقتصـادي، حيـث شـكّلت النـدرة وعـدم الاسـتقرار عوامـل مؤثـرة في ترتيـب الأولويات الاجتماعيـة.

ومـع توسّـع الحـواضر العربيـة وازدهـار المـدن، انتقلـت بعـض هـذه التصـورات إلى الوعـي الجمعي في صور جديـدة، فظهرت أحيانًا ملامـح مـن التوجس تجاه الحِـرَف اليدوية، أو النظـرة الدونية لبعض المهـن، وهـو مـا انعكـس في أمثال دارجـة أو مواقـف اجتماعية تكرّس الاتـكال، أو تُـبرر العـزوف عـن العمل المنتج باسـم الـرزق أو المكانة. في المقابـل، لا يمكـن إغفـال الـدور التحـولي الـذي أحدثـه الإسـلام في إعـادة الاعتبـار للعمـل، إذ حـرّر الكـدّ مـن وصمـة الدونيـة، وربـط القيمـة بالجهـد المـشروع، وجعـل السـعي في الأرض جزءًا مـن المعنى الإنسـاني للحيـاة. وقـد أكد القـرآن الكريم هذا البعد حـين ربط النهار بالمعـاش، في إشـارة واضحـة إلى مركزيـة العمـل في العمـران البشري.

الأخطـر مـن ذلـك هـو الانقـلاب القيمـي الـذي حـدث، حيـث أصبـح الـشرف يُقاس بالتسـلّط لا بالعدل، والكرم بالبذخ الاسـتعراضي لا بالإنتـاج المجتمعـي، والهيبـة بفـرض السـيطرة لا باحـترام الجهـد.

وتحوّلت القيم إلى طقوس شكلية تعيد إنتاج الهيمنة باسم الفخر القبلي، بدلاً من الكرامة الإنسانية الشاملة.

وفي العصر الحديث، ومع تشكّل الدولة الوطنية واقتصاد السوق، عادت بعض هذه الإشكاليات للظهور بأشكال جديدة، مثل الاقتصاد الريعي، والثراء غير المنتج، وازدراء المهن التقنية والحِرَفية، مقابل تمجيد الاستهلاك والوجاهة. وهي مظاهر لا تعكس حتمية تاريخية، بقدر ما تشير إلى صعوبة الانتقال الكامل من أنماط تقليدية إلى ثقافة إنتاج حديثة.

وتبقى الحقيقة الاجتماعية والاقتصادية واضحة: لا يمكن تحقيق نهضة مستدامة دون عمل منتج، ولا تُصان الكرامة الوطنية دون جهد حقيقي يشارك فيه الجميع. فالمجتمعات لا تُبنى بالخطاب وحده، بل بالإنسان العامل، صانعًا كان أو مزارعًا أو معلّمًا أو تقنيًا. والعمل، في جوهره، ليس نقيض الكرامة، بل أحد تجلياتها، والحرفة ليست ضعفًا، بل قوة اجتماعية تُحرّر الإنسان من الحاجة، وتمنح الأوطان أسباب الاستقلال والنهوض.

★★★

## العمل .. بين الإنتاج والحضور:

إن مفهوم العمل لا يتوقف عند الحضور الجسدي خلف المكتب أو أمام الآلة، فالعمل الحقيقي هو التزام أخلاقي، ومسؤولية ذاتية، وانضباط داخلي يتجاوز الرقابة الخارجية. لكن عند تقييم واقع العمل في عدد من الدول العربية، يظهر مشهد مقلق، إذ نرى ساعات عمل طويلة وموثقة في السجلات، لكنها لا تتناسب طردياً مع مستوى الأداء والإنتاجية الفعلية. فالحضور هنا شكلي، غالباً ما يغيب عنه الجوهر، ويتآكل فيه المعنى المؤسساتي.

تحدد معظم التشريعات العربية ساعات العمل الرسمية بنحو (٨) ساعات يوميًا، وبحد أقصى (٤٨) ساعة أسبوعيًا، كما هو الحال في الأردن، ومصر، ولبنان، وتونس، إضافة إلى غالبية دول الخليج. غير أن الفارق بين النص القانوني والممارسة الفعلية يظل واسعًا في كثير من السياقات. وعلى الرغم من هذا الالتزام الزمني المُعلن، لا ينعكس طول ساعات العمل بالضرورة على مستوى المردود أو جودة الإنتاج. وتشير ملاحظات تنظيمية ودراسات عمل إلى أن الإطالة الزمنية قد تؤدي في كثير من الحالات إلى إرهاق ذهني، وتراجع التركيز، وضعف الكفاءة الفردية، بدلًا من تعزيز الأداء.

ويعكس هذا الواقع إشكالية أعمق في فلسفة العمل السائدة، حيث يُقاس الالتزام بعدد الساعات المقضية في المكتب، لا بقيمة

ما يُنجَز خلالها، وهو ما يطرح تساؤلات جوهرية حول العلاقة بين الزمن والإنتاجية في بيئات العمل العربية المعاصرة.

في المقابل، تتكرر مظاهر التراخي واللامبالاة المؤسسية في القطاع العام في بلاد الشام وشمال إفريقيا. الموظفون يداومون بشكل منتظم، لكن بروح مثقلة بالإحباط وغياب الحافز الفعلي للإنتاج. ينتظر المراجعون لعدة أيام لإنجاز معاملة بسيطة، دون مبرر سوى البيروقراطية الرخوة، أو التسويف المستمر، أو «ثقافة التأجيل» التي أصبحت جزءاً من البنية الإدارية.

أما في الدول التي تمر بأزمات وكوارث مزمنة مثل اليمن وسوريا والسودان، فإن مفهوم الالتزام الوظيفي يتآكل تدريجياً، ليس لغياب النية، بل لانهيار البيئة الداعمة نفسها: رواتب لا تغطي الحد الأدنى للمعيشة، ندرة وسائل النقل، واتساع الفجوة المؤلمة بين الوظيفة والحاجة اليومية. في هذه البيئات، تفقد «ساعات العمل» معناها الحقيقي، وتتحول إلى مجرد إجراء شكلي مفرغ من المضمون.

والنتيجة الكلية لهذا المشهد هي تراجع واضح في مؤشرات الكفاءة والفعالية عربياً. فمعظم دول المنطقة تحتل مراكز متأخرة في تقارير التنافسية العالمية، تحديداً في مؤشرات جودة الإدارة العامة، وفعالية استخدام الوقت، ومستوى رضا المواطن عن الخدمات الحكومية. ورغم وجود خطط إصلاح إداري معلنة، فإن الواقع يكشف عن فجوة واسعة بين الاستراتيجيات المكتوبة

والتطبيـق الميـداني الفعـال.

تكمن الإشـكالية الأساسـية في غياب ثقافة العمل كقيمة مضافة، لا كواجـب مفـروض. لا يكفـي الحضـور الجسـدي، أو شـغل المقاعـد حتـى نهايـة الدوام، ما لم يكـن هناك أثر نوعي ومقنـع لهذا الحضور. العمـل الحقيقي يُقاس بـجودة النتائج، وبقدرة المؤسسـة على خدمة الجمهـور بكفاءة، وبإحسـاس الموظـف بأنه شريك اسـتراتيجي في بناء مؤسسـته ومجتمعـه، وليـس مجرد تابع في سلسـلة أوامـر بيروقراطية جامدة.

إن الإصـلاح المطلـوب ليـس تقنيـاً أو هيكليـاً فحسـب، بـل هـو إصـلاح ثقـافي وقيمـي بالدرجـة الأولى. يتطلـب الأمـر ثـورة هادئة في فهـم معنـى العمـل، وإعـادة غـرس قيمتـه في الوعـي الجمعـي منـذ الطفولـة. لا نحتـاج إلى زيـادة سـاعات العمـل المطلقة، بـل إلى زيادة الإحسـاس بالمسـؤولية الذاتيـة والمهنيـة ولا نحتـاج إلى عقوبات أشـد، بـل إلى تأسـيس بيئـة عمـل تتسـم بالعدالـة والإنصـاف والتحفيـز المستدام.

وعندمـا نصـل إلى مرحلـة الإيمـان العميـق بـأن العمـل ليـس واجبـاً وظيفيـاً فقـط، بـل شرف ومسـؤولية وعنـوان للهويـة الفرديـة والجمعيـة، سـيكون بمقدورنـا حينهـا إحـداث نقلـة حقيقيـة في أداء مؤسسـاتنا، وإعـادة رسـم العلاقـة بـين الوقـت والإنتـاج، بين الإنسـان والمجتمـع، وبـين الدولـة والمسـتقبل المنشـود.

# الباب الرابع

## قضايا المجتمعية

# الضحالة المعرفية بيئةً للغوغاء والكره

ثمة علاقة وثيقة بين ضيق الأفق المعرفي واتساع مساحات الصخب والعداء بين الناس. عندما تغيب المعرفة العميقة ويضيق الاطلاع وتتراجع مهارات التفكير النقدي، يصبح الناس أكثر استعدادًا للانجراف وراء الأصوات العالية والشعارات الجوفاء.

في المجتمعات أو المجموعات التي تضعف فيها الثقافة الحقيقية، وتغيب فيها الرغبة في الفهم، نجد أن أبسط الخلافات تتحول إلى عراك. فيصبح النقاش معركةً لإثبات الذات لا وسيلةً للتعلم أو تقريب وجهات النظر وتتلاشى معايير الاستدلال والبرهان، فلا وزن لحقيقة موثوقة، ولا قيمة لحجة موضوعية.

الضحالة المعرفية تجعل العقول كسولة، تفضّل التلقين على البحث، والانفعال على التحليل. ومع الوقت، يصير من السهل جدًّا تحريك تلك العقول بخطاب تحريضي أو شائعة سريعة الانتشار. وهنا تبدأ الغوغاء في التكاثر، حيث يختفي الحوار ويعلو الضجيج.

إن الكره والحقد، غالبًا، لا يترعرعان في بيئة العلم والاطلاع الواسع. العارفون يميلون إلى التسامح لأنهم يدركون تنوع الأفكار وتجارب الناس. أما الجهل، فهو يولّد الخوف من المختلف، والخوف يولّد العداء. لذلك ترى أكثر الناس تطرفًا هم الأقل وعيًا والأقل رغبة في التعلم.

في ظل هذا المناخ، تذبل فضيلة الاعتراف بعدم المعرفة حيث يندر أن يقول أحدهم «لا أعلم» أو «أحتاج أن أتحقق»، وكأن الاعتراف بالجهل عيب أكبر من أن يهرف بما لا يعرف.

لقد علمتنا التجارب أن مناقشة الضحلين معرفيًا كثيراً ما تتحول إلى دوامة من الانفعالات والشتائم والاتهامات، لأن الأساس المشترك غائب، والمنطق ضعيف، والرغبة في الحقيقة شبه معدومة.

من هنا، يكون توسيع دائرة الاطلاع، والتعود على القراءة، وتربية فضيلة الشك المنهجي، ضرورةً لكل من يريد أن يبني مجتمعًا عاقلًا لا تتحكم به الغوغاء. لا أحد يملك الحقيقة المطلقة، لكن الوعي والبحث يصنعان حدًا أدنى من الاحترام والإنصاف.

في النهاية، ربما علينا أن نتذكر دائمًا أن الصوت العالي لا يعني الصواب، وأن الغضب وحده لا يصنع حجة، وأن الضحالة حين تهيمن، يصبح الحقد والكره أسهل من أي محاولة صادقة للفهم.

★★★

# العنف المجتمعي في الجامعات:

حين تضج الساحة الجامعية، التي وُلدت لتكون منارة للمعرفة والحوار، بصراخ وصدامات عنيفة، فذلك يُعد مؤشراً مؤلماً على تحوّل الحرم الأكاديمي إلى مسرح مكثف لمظاهر العنف المجتمعي. الجامعة هي مرآة المجتمع الحساسة؛ فإذا ما تفجر العنف بين طلبتها، فهذا يعني أن جذوره ضاربة في الشارع، والبيت، والحي. إن ما يجري داخل الحرم ليس مجرد مشاجرات عابرة، بل هو صورة مصغّرة لأزمات أعمق تتمثل في ضغوط اقتصادية خانقة، وبطالة متزايدة، وانسداد أفق أمام الشباب، وضعف في التنشئة الاجتماعية، حيث تضاءلت ثقافة الحوار وحل محلها منطق ردود الفعل الغاضبة.

العنف في الجامعات هو جرس إنذار يُشير إلى ثقافة مجتمعية تبرر القوة وتسوّغ العنف، وتحوّل الاعتداء إلى سلوك مُعدٍ يتكرر. وتتضافر عوامل الأعراف المتسامحة مع ضغوط الحياة لتغذي هذه الظاهرة الخطيرة.

الخطر الأكبر يكمن في التغاضي واعتبار هذه الأحداث مجرد «هوامش عابرة». بل بالعكس تمام، فكل حادثة عنف تترك ندبة في وعي المجتمع، وتزرع الخوف في نفوس الطلبة، وتضعف ثقتهم بأن الجامعة مكان آمن يحمي أحلامهم.

إن مواجهة هذه الظاهرة تتطلب عملًا متكاملاً يتجاوز الحزم القانوني، الذي يبقى ضرورة لا غنى عنها. يبدأ الحل من البيت، حيث تُغرس القيم الأولى، ومن المدرسة، حيث يُتعلّم معنى والحوار وتقبل الآخر، ويمتد إلى الإعلام، الذي يجب أن يُسلط الضوء على خطورة العنف بدلاً من تطبيعه.

الجامعات نفسها مدعوة لتجاوز دورها التعليمي التقليدي، وتقديم برامج إرشاد نفسي، ودوائر حوارية، وبدائل إيجابية لاحتواء الغضب. يجب أن تكون عمادات شؤون الطلبة خط الدفاع الأول، والمراكز الطلابية فضاءات للتعبير المسؤول. كما تقع على عاتق المجتمع المدني والمؤسسات الدينية مسؤولية تبني خطاب واضح وقوي ضد العنف، قائم على قيم الرحمة والعدل.

إن السكوت عن هذه الظاهرة ليس حيادًا، بل تواطؤٌ غير مباشر مع ما يهدد نسيجنا الاجتماعي. لقد آن الأوان أن نعيد الاعتبار لحرمة الجامعة، ولقيمة التعليم، ولثقافة الحوار. فالمجتمع الذي لا يواجه العنف بالحزم والوعي معًا، يورث أبناءه ثقافة الخوف بدلاً من ثقافة الأمل.

العنف ليس قدرًا، لكنه يصبح قدرًا إذا استسلمنا له.

★★★

# التوجيهي في الأردن... موسم الطوارئ الوطني!

في الأردن، للتوجيهي نكهة خاصة لا تشبه أي نكهة أخرى في العالم. إنه ليس مجرد امتحان مدرسي، بل حدث وطني من الطراز الرفيع، له طقوسه، وتقاليده، وآثاره الممتدة على الفرد، والأسرة، والحيّ، وحتى أجهزة الدولة!

فمنذ أن يخطو الطالب إلى «سنة التوجيهي»، تعلن العائلة حالة الطوارئ القصوى. الأم تتحول إلى وزيرة داخلية وخارجية وتعليم، ترسم الجداول، تراقب مواعيد النوم، وتحضّر الوجبات «المحفّزة للذاكرة». أما الأب، فيتقمص دور المستشار الأمني والمعنوي، يسهر على راحة ابنه، يقود حملات الصمت في المنزل والحي، ويمنع تشغيل التلفاز... حتى لو كانت النشرة الجوية! بل ويزيد المصروف للطالب، ويحرص على جلب الطعام الذي «يفتح العقل»، ويصرّ أن يسهر الطالب حتى ساعات متأخرة لعل «الساعات الليلية تُنتج علامات أعلى»! أما الإخوة الصغار، فيُفرض عليهم حظر تجوال نفسي وعاطفي. لا ضحك، لا لعب، ولا حتى تنفس بصوت مرتفع. كل ذلك احترامًا لقدسية «المرحلة»، وتفاديًا لأن يُتّهم أحدهم بتشتيت التركيز وإفساد المستقبل الموعود!

ولا يتوقف التأثير عند حدود المنزل. فالمجتمع كله يدخل في حالة مماثلة فتنخفض أصوات الأعراس، وتُخفَّض مكبرات الصوت،

وتنتشر لافتات «بالتوفيق لابن الحارة» كما لو كانت بيانات حكومية. باختصار، يدخل الشارع الأردني في حالة من الصمت المريب، وكأن البلاد تستعد لاجتياز اختبار وطني جماعي.

لكن الضغط لا ينتهي بانتهاء آخر امتحان. بل يبدأ فصل جديد من الترقب، والقلق، والتأويل، واللوم. تبدأ التحليلات: «أكيد غلطوا بالتصحيح»، «لو غيرنا الفرع من أول كان أحسن»، «السؤال الرابع من الفيزياء ما إجا على الدفعات السابقة!» ثم تأتي لحظة النتائج، فتتوزع البيوت بين منازل أفراح تعج بالجيران والحلوى، وأخرى تُغلق نوافذها وتخفت أنفاسها وكأن شيئًا لم يكن.

والمفارقة الكبرى؟ أن هذه الدراما الاجتماعية تتكرر كل عام، بنفس التفاصيل، وكأننا نعيد تمثيل مسرحية قديمة مع تغيّر الأبطال فقط. في نهاية المطاف، لا بد من الاعتراف بأن التوجيهي لم يعد مجرّد تقييم أكاديمي، بل تحوّل إلى ظاهرة اجتماعية وثقافية متجذّرة، تتطلب منّا إعادة النظر في طريقة تعاطينا معها، بوعي وهدوء، وبعيدًا عن الضغط المفرط والتهويل. فربما... فقط ربما... نصل إلى تلك اللحظة التي لا يحتاج فيها الطالب إلى «جهاز تنفس معنوي» قبل كل امتحان، ولا تشعر فيها العائلة وكأنها اجتازت معركة وجود بعد كل عام دراسي.

★★★

# مواسم التعديل الوزاري:

في كثير من دول الوطن العربي، لا يُعد التعديل الوزاري مجرد إجراء دستوري تنظمه الدول ويُعلن عبر وسائل الإعلام، بل هو «موسم» بحد ذاته، له طقوسه ومؤشراته وأثره العميق، سواء أُعلن أم تأخّر، تمّ جزئيًا أم شاملاً، طال وزارة واحدة أو كل الطاقم الحكومي. ومع كل بوادر تعديل قادم، يبدأ الشارع في الدخول إلى حالة من الترقّب الصامت. الصحف تُحلل، المجالس تهمس، ووسائل التواصل تمتلئ بقوائم «متوقعة» تتكرر بوجوه مألوفة، مع بعض «المفاجآت» التي قد لا تفاجئ أحدًا في النهاية.

لكن ما وراء هذا الطقس الموسمي، هناك أثر اجتماعي ونفسي لا يُستهان به. فالتعديل الوزاري، بطبيعته، يحمل رسائل ضمنية للمجتمع: هل نحن على أعتاب مرحلة جديدة؟ هل هناك اعتراف ضمني بأن هناك ما لم ينجح؟ هل هذا التغيير جزء من الإصلاح... أم مجرّد إعادة ترتيب في الواجهة؟ كل هذه الأسئلة تبقى معلقة، وغالبًا بلا إجابات.

على المستوى الاجتماعي، يميل المواطن العربي، بحكم التجربة، إلى ربط المسؤولية بالأشخاص أكثر من السياسات. فيُحمِّل الوزير القادم آمالًا كبيرة، ويتابع خلفيته، خطابه الأول، ملامحه في مراسم

التكليف، وحتى تفاصيل حضوره الإعلامي، وكأن الناس تبحث في تعابيره عن بوصلة تُشير إلى اتجاه المرحلة القادمة.

لكن على الجانب الآخر، هناك أيضًا أثر نفسي أقل ظهورًا لكنه عميق. كل موظف حكومي يتبع لوزارة مشمولة بالتعديل يبدأ بحسابات جديدة: هل ستُغيَّر الخطط؟ هلّ سيتغير الفريق؟ وهل يا ترى ما بدأناه سيُستكمل؟ هذه الأسئلة تخلق نوعًا من التوتر الصامت في الجهاز الإداري، وتؤخر أحيانًا القرارات والمشاريع بانتظار «ما بعد التعديل».

اقتصاديًا، التعديلات قد تُؤثّر ولو بشكل غير مباشر. فالمستثمر، والممول، وحتى المواطن، يراقب ويُقيّم. فالاستقرار السياسي، حتى في مستوياته الوزارية، هو مؤشر للثقة، خصوصًا في دولة ذات موقع إقليمي حساس. وكل تأخير أو ضبابية في مسار الحكومة قد يُقرأ في الخارج بطريقة مغايرة لما نراه داخليًا.

ومع تكرار التعديلات دون وضوح كافٍ في المسارات والسياسات، قد يشعر المواطن بأن التغيير الوزاري أقرب إلى تعديل في الوجوه لا الاتجاهات، ما يُضعف أثره الإيجابي، ويحصره في ردّات الفعل الإعلامية والهمس المجتمعي لا أكثر.

لكن لا بد من القول، إنّ التغيير بحد ذاته ليس سلبيًا، بل هو سُنّة الحياة، ومؤشر على مرونة النظام وقدرته على التصحيح. ما

**نحتاجـه، فقـط، هـو أن يقترن هذا التغيير بـــرؤية واضحة، ومكاشـفة جريئـة، ومتابعـة حقيقيـة للنتائـج. عندهـا فقط، قد يتحوّل «موسـم التعديـل» مـن حـدث موسـمي متكـرر، إلى فرصـة وطنيـة متجـددة تُبنـى فيهـا الثقة، وتُصحَّح فيها المسـارات، ويُسـتعاد فيهـا الإيمان بأن الكفـاءة لا زالـت هـي الطريـق، وأن الإصـلاح ليـس مجـرد شـعارات تُعـاد كل بضع سـنوات.**

★★★

## من العادة إلى الوعي في بيوت العزاء:

في مجتمعاتنا، لا تزال بعض العادات ترتدي عباءة القداسة الاجتماعية، حتى لو تجاوزها الزمن وفضح هشاشتها المنطق والذوق العام. لقد تحول «المنسف»، الأكلة الوطنية في شرق الأردن، من رمز للكرم والفخر إلى طقس اجتماعي ثقيل ومُكلِف، يفرضه التقليد ولو على حساب الكرامة، واحترام الطعام، ومنطق العقل والتدبير.

لقد أصبح منسف العزاء لا يختلف عن منسف الفرح، يتكرر فيه مشهد الإسراف غير المبرر، حيث تستهلك كميات ضخمة من الطعام وتهدر، ثم تُجمع البقايا لتوزع في لفتة تُوصف زورًا بالإحسان، بينما هي في حقيقتها إهانة للطعام وللفقير على حدّ سواء. إن الحجة التقليدية القائمة على أن «الناس كانوا يتناوبون على الصحن» لم تعد صالحة اليوم؛ فالناس باتوا يتناولون طعامهم على عجل، ولكننا لا نزال نستخدم هذا المشهد الغائب لتبرير فعل فقد سياقه ولياقته الاجتماعية.

هناك نقلة نوعية حدثت بفتح بيوت العزاء مساءً دون وجبة غداء، وهي خطوة تستحق الإشادة. لكن التفاخر لا يزال قائماً؛ فبعض الناس يقيسون حجم الحزن بكمية الطعام لا بحرارة الفقد، ويقيسون العزاء بعدد رؤوس الخراف لا بصدق التعزية. فمازلنا

نـرى الهـدر الكبـير للطعـام الـذي يثقـل الكاهـل ولازلنـا نـرى أن مـا يُقـدَّم عـلى أنـه «إطعـام للفقـير» غالبـاً مـا يكـون بقايـا طعـام منهك لا يصلـح لاسـتهلاك آدمـي، ولا يمـتّ بصلـة لفكـرة الصدقـة أو التـبرّع النبيلة في الإسـلام.

إن السـؤال الجوهـري يكمـن في: أيـن نحن مـن التـبرّع الحقيقي الموجـه؟ لمـاذا لا يُوجَّـه هـذا المال المُهـدر في سـاعات إلى تعليم طفل، أو كفالـة أسرة، أو تأهيـل مـشروع صغـير، أو سـداد قسـط جامعـي؟ لمـاذا لا نُؤسـس صندوقًا للعـزاء يُعنى بضمان الكرامة لمن لا يسـتطيع دفـع كلفـة فاجعتـه، بـدلاً من تكديـس الطعام في خيـام تُنصب تحت وقـع الحزن؟

مـا نحتاجـه اليـوم هـو ثقافـة تـبرّع مختلفـة؛ تـبرّع نابـع مـن الوعـي، موجّـه، عـادل، ومسـتدام. تـبرّع لا يتفاخـر بـه صاحبـه، ولا يُهـدر فيـه الطعـام، ولا يتحـوّل إلى مناسـبة اجتماعيـة للتباهـي، بـل يُكـرّم الميـت بإعانـة حـيّ. لقـد آن الأوان لأن نتحـرر من وهـم الكرم المرتبـط بـالإسراف والعبـث، ونعـود إلى كـرم المعنـى لا كـرم المظهـر. الديـن الحنيـف لم يكـن يومًـا ديـن مظاهر، بـل دين مواقـف أصيلة.

★★★

## ولائم الفرح بين الماضي والحاضر:

في إحدى ولائم الأعراس، جلسنا في أجواء مسائية هادئة، ودار حديث بين الحاضرين حول الفارق بين أفراح الماضي وحاضرنا. وكعادة مثل هذه الجماعات المتنوعة وغير المتوقعة، غلب الحنين إلى الأيام الخوالي، إذ راح الكثيرون يترحمون على الماضي ويصفونه بأنه أجمل وأكثر دفئًا. غير أنني وجدت نفسي، لا من باب المخالفة وإنما من باب التحليل، أميل إلى النظر بموضوعية أكثر، فالماضي الذي نتغنى به لم يكن دائمًا مثاليًا كما نحب أن نتصوره، بل حمل معه صعوبات وتعقيدات نميل إلى نسيانها.

في الماضي كان إعداد الطعام عبئًا شاقًا. النساء كنّ يجمعن الأدوات ويقضين ساعات طويلة في الطبخ، والرجال كانوا بدورهم يتحملون مسؤوليات ثقيلة مثل حمل المنسف أو صب القهوة بما يليق بالضيوف، ويبحثون عن «معزبين» يساعدونهم. هذه التفاصيل التي نرويها اليوم كجزء من «أصالة الماضي» لم تكن دائمًا مبهجة، بل كثيراً ما سببت توترًا أو مشاحنات صغيرة بين الأقارب. وحتى تناول الطعام لم يكن عادلًا أو بسيطا كما نتصور؛ إذ كان يتم على جولات الأولى فالثانية وقد تصل الثالثة، وغالبًا ما كان الكبار يخبئون قطع اللحم في الرز لضمان نصيب لاحق للمعزبين وهذا لم يكن امراً ورديا دوما، بينما يكتفي الأطفال أحيانًا بالقليل. ومع

ذلـك، يسـتحضر النـاس المـاضي بصفاتـه الطيبـة، متغافلـين عـن هذه المشقة.

أمـا اليـوم فقـد اختلف المشـهد. الحفـلات أكثر سلاسـة وتنظيمًا، والطعـام يُعـد عـلى أيـدي طباخين محترفـين، والمعزب يجلـس مطمئنًا مـع ضيوفـه بـلا قلـق. لم يعـد هنـاك جـدل حـول مـن يصـب القهوة أو مـن يـوزع الطعـام، فلـكل مهمـة شـخص مختـص يعـرف أصولهـا ويؤديهـا بإتقـان. وحتـى فائـض الطعـام لم يعد يرمى في الشـوارع كما كان يحـدث أحيانًـا في المـاضي، بـل صـار يُجمـع ويُعـاد توزيعـه عـبر مبـادرات منظمـة تحفـظ النعمـة وتوجههـا لمـن يسـتفيد منهـا، و ان كنـا ما نـزال نواجـه بعـض القصـور أحيانا.

ولا يمكـن تجاهـل جانـب المـكان. في الماضي كانـت البيوت ضيقة والممـرات مكتظـة، وكان النـاس يزاحمـون بعضهـم لتنـاول الطعـام. اليـوم، وفـرت الخيـام والقاعات الرحبة مسـاحات أوسـع وراحة أكبر، وهـو مـا يعكـس انتقال المناسـبات مـن طابعهـا التقليـدي الضيق إلى أجـواء أكـثر رحابـة وتنظيمًا.

صحيـح أن المـاضي حمـل شـيئًا مـن الـدفء الاجتماعـي، لكنه لم يكـن دائمًـا جميلًا و ورديا كما نحب أن نرويـه. كان مليئًا بالتعقيدات والقيـود، وكان النـاس يرضون ويغضبون لأسـباب بسـيطة. أمـا اليوم، وبرغـم بعـض المظاهـر التـي قـد تُنتقـد، فـإن الأعـراس أكـثر راحـة، والطعـام أوفـر وأعـدل توزيعًا، والمعاملـة بين الضيـوف والأقارب أكثر مسـاواة. حتـى الجـدل حول اسـتخدام الصحـون في بعـض الجمعيات

العشائرية لم يأتِ من «جيل الديجيتال» كما يُقال، بل من بعض الكبار المتنورين، ما يوضح أن التغيير ليس فرضًا خارجيًا وإنما تطور طبيعي في المجتمع.

في النهاية، ليس جمال الفرح في حجم ولا اعداد المناسف، بل في روح اللقاء وصدق الوجوه وفرحة القلوب التي تجتمع على الخير. الماضي له حنينه، والحاضر له امتيازاته، وما يبقى الأجمل أن تظل جمعتنا عامرة بالأصحاب والجيران والأقارب والأصدقاء والأنسباء، وأن تبقى مناسباتنا محطات للبهجة والتواصل الإنساني، تحفظ ذكرى الأمس وتحتفي بامتيازات اليوم معًا.

★★★

## نحتفي بالعروس... وننسى من ربّتها:

في أيام الصيف، وعند تعدد وتنوع الجاهات، والتغني والاعتداد بالنسب والحسب في مجتمعاتنا، تُعدّ لحظة «طلب العروس» من أرفع اللحظات الاجتماعية وأكثرها رمزية. تتقدّم فيها العائلات بكامل هيبتها، تُنسَج الكلمات بعناية، ويُذكر الأب والخال والعشيرة، وتُستعرض الأنساب، وتُقال الآيات الكريمة والعبارات التي تحمل الفخر والوقار. هو مشهد يُراد له أن يكون مهيبًا... لكنه، في كثير من الأحيان، يُقصي عنصرًا هو الأهم.

فأين الأم؟ أين تلك المرأة التي حملت، ووضعت، وربّت؟ أين صوتها الذي كان أول ما سمعته هذه العروس وهي طفلة في مهدها؟ أين دفء صدرها حين اشتدّت الحياة، وحنانها حين جار الزمن؟ هي التي علّمت، وأطعمت، وسهرت، وتحمّلت، وربما حتى ضحّت بأحلامها ليكبر حلم صغيرها. ثم يُقال: «طلبناها من أهلها»... ويُقصد بالأهل فقط من يحملون لقب العائلة، لا من حملت وجع الولادة، ولا من ذرفت دموعها خفية وهي تُعدّ ابنتها لهذه اللحظة.

ليست الأم وحدها من تُهمّش، بل يُغيّب حضور النساء كلهنّ: الخالة التي كانت سندًا، والعمة التي كانت ظلًا، والجدة التي زرعت البركة في البيت، والجارة والصديقة التي فرحت وكأنها من

الـدم. في لحظـة يُفـترض أن تكـون تتويجًـا لمسـيرة أنثويـة كاملـة، يتم اسـتدعاء أصـوات الرجال، ويُهمّـش حضور النسـاء. وكأن الطفلة التي كـبرت، ونضجـت، وازدانـت حيـاءً وعقـلًا، لم تكـن نتـاج امـرأة صبورة ويديـن ناعمتـين صنعتـا المسـتحيل، وقـد يكـنّ عـدد مـن النسـاء قـد تعـاونّ على هـذه المهمـة الصعبة.

يـا لخيبـة العرف حـين يرفع من حضر سـاعة القطـاف... وينسى مـن زرع، وسـقى، وسـهر، وانتظـر! لعـل الوقـت قد حـان لنكسر هذا الصمـت الطويـل، لنمنـح لـلأم والأنثى بشـكل عـام مكانتهـا في لحظة الفخـر، لا خلـف السـتار بـل في مقدّمـة المشـهد، ولنُعيـد التـوازن إلى العـرف، فنذكـر مـن ربّـت كـما نذكـر مـن نسـب. هـي دعـوة لإحياء الامتنـان، ولأن تكـون كل لحظـة تكريـم للعـروس، هـي أيضًـا لحظـة تكريـم لـلأم والنسـاء الـلاتي جعلـن مـن ابنتهـم زهـرة تسـتحق أن تُقطـف. في ذكـر الأمهـات والأخـوات رفعة... وفي إنصاف النسـاء نورا لا يُطفأ.

★★★

# ائتلاف اللهجات وشتات المبادي....

## ميثاق البيت المفقود:

في زاوية هادئة من بيت عربي حديث، وتحديدًا على مائدة الغداء، تنكشف ملامح الأسرة المعاصرة كما لو كانت مسرحًا حيًّا يعرض مشهدًا من تداخلات الهوية والانتماء والوجدان. ليست الطاولة مكانًا للطعام فحسب، بل مرآة تعكس تنوعًا في اللهجات، وتباينًا في الأذواق، وتناقضًا في القيم أحيانًا، حتى يكاد يكون كل طرف من أطرافها يمثل عالَمًا مختلفًا.

الأم والبنات ينطقن بلهجة لبنانية ناعمة، تشبه أجواء مقهى صيفي في بيروت، بينما يتمسّك الرجال بنغمة بدوية أصيلة تنبع من أعماق الذاكرة. تقول إحدى البنات بابتسامة مفرطة: «بليز ناوليني الملح، التبولة طالعة فزيعة!»، فيرد العم مازحًا بحزم: «تبولة؟ هاي ما بتشبع... الرشوف هو الأكل اللي بيعبي البطن وبيشيل التعب!»، بينما الجدّ يتحدث عن «الهيطلية» المصنوعة من لبن الغنم، والبنات يتباهين «بتشيزكيك» على الطريقة الباريسية. النساء يتداولن وصفات «مازات رمضانية»، بينما يستحضر الأب دفءَ الخبيزة وزيت الزيتون، ويستغرب ثقافة «الدليفري» التي غزت المطبخ والوجدان.

لكن الاختلاف على الطاولة لا يقف عند حدود النكهات، بل يفضح خللاً أعمق في المفاهيم والسلوكيات. فبينما يُربّي الأب أبناءه على الصدق، يُطلب من أحدهم الرد على الهاتف بعبارة: «بابا مش بالبيت». ويُلقَّن الطفل احترام المرأة، بينما يسمع والدته تتهكم على فتاة في الشارع لمجرد مظهرها.

في اليوم نفسه، تطلب الأم من ابنها ألا يخبر والده بزيارتها لأهلها، ثم يجلس الأب مع أصدقائه في مقهى ليؤكد بأغلظ الإيمان أن أولاده ليسوا أغلى من أولاد صديقه على قلبه، قبل أن ينخرط في التفاخر بمقارنة علامات ابنه بعلامات أبناء إخوته وأصدقائه. أما الفتاة التي تُمنع من الحديث مع زميلها، فترى اخوها يضحك ويتبادل النكات مع زميلاته في العمل، ليعظها مساءً بأن تكون «محترمة وتعرف الأصول».

ما نراه ليس مجرد مشاهد عائلية طريفة، بل علامات تربوية تنذر بارتباك عميق في الرسائل والقيم. نحن لا نُفسد التربية بنوايا سيئة، بل نُربكها بتناقض ما نقول وما نفعل. نُعلّم أبناءنا قيماً نُفنّدها بأنفسنا، ونرسل إشارات مشوَّشة تُربك فهمهم للثوابت، فالأسرة، حين لا تعيش تناغمًا بين القول والفعل، لا تغرس الثقة بل الشك، ولا تنمّي الوضوح بل التردد.

الأبناء لا يحفظون المحاضرات، بل يلتقطون التفاصيل: تصرّف، نظرة، نبرة صوت... ويُعيدون إنتاجها كمرآة لنا، لا كنسخةٍ من كتب التربية. فهل نقدّم لأبنائنا نموذجًا صادقًا يُحتذى به؟ أم نكتفي

**بخطـاب شـكلي نُفرغـه مـن مضمونـه عـبر ممارسـاتنا اليوميـة؟ وهل باتـت مائدتنـا تتسـع لتعدد الأطبـاق واللهجات فقـط؟ أم تحوّلت إلى مسـاحة تتزاحـم فيها المبـادئ المتضاربة؟**

**البيـت السـويّ لا يعنـي بيتًا بلا أخطـاء، بل بيتًا يعـترف، يُصارح، ويجتهـد لتحقيـق الانسـجام بـين القيم والسـلوك، هو بيـتٌ قد تتنوع فيـه النكهـات واللهجـات، لكن تظل فيـه القيم واضحة، مشـتركة، غير قابلة للتشظي.**

★★★

# الدخان... صديقٌ قديم:

بدأت قصتي مع التدخين في سنٍ لا يمكن أن تُسمّى مبكرة، ولا متأخرة أيضًا. كنت في العشرين من عمري، طالبًا أدرس الطب في الاتحاد السوفياتي السابق، أعيش وحدي في غربةٍ طويلةٍ وبردٍ لا يرحم. هناك، في تلك الزوايا البعيدة، كانت السيجارة بالنسبة لي أكثر من عادة... كانت رفيق الصباح والمساء، وصوت الوحدة في المدن الثلجية البعيدة.

لكن مشكلتي لم تكن أني أدخن، بل أني كنت مدخنًا نهمًا وشرها جدًا. كنت أستهلك أربع إلى خمس علبٍ في اليوم، ومع ذلك كنت أقول للناس بثقةٍ خجولة إنها ثلاث فقط، وكأنني أخفف من ذنبي أمام نفسي واحفظ ماء وجهي أمام الحضور.

عانيتُ كثيراً بعد التخرّج حين أصبحتُ طبيبًا؛ إذ كانت، وما تزال، صورة الطبيب المُدخّن تُشكّل وصمةً مؤلمة ومصدر خجلٍ عميق. لم أستطع يومًا أن أُقنع نفسي كيف ليدٍ تُداوي المرضى أن تحمل، في الوقت ذاته، علبة سجائر. ومع هذا التناقض القاسي، كنت أجد نفسي أضعف أمامها في كل مرة، رغم إدراكي الكامل لثقل المفارقة.

كانت النار تلاحقني حتى في مظهري. أحرق ملابسي الجديدة كل أسبوعين، فلا أفرح بقميص ولا بسترةٍ إلا وقد أصابها احتراقٌ

صغير. أصابعي اصفرّت، وملابسي تفوح منها رائحةٌ أعرفها ولا أطيقها.

ثم جاء التحوّل الكبير في حياتي. وصادف أنني سافرت إلى الولايات المتحدة حيث التدخين يكاد يكون مستحيلًا. بعدها توجهت مباشرة إلى رحلةٍ طويلة إلى الباكستان للعمل مع احدى المنظمات الدولية، وهناك، دون تخطيطٍ مسبق، وجدت نفسي أُقلع عن التدخين. قلت حينها: سأعود إليه عند عودتي إلى الوطن.

وعندما عدت، كان والدي لازال مريضا فقررت في نفسي ألا أدخن ما دمت لم أفعلها أمامه يومًا، ولم تكن صحته لتحتمل. في الوقت ذاته ترك أخي الصغير الحبيب التدخين لأسبابه ايضا، فوجدت في الموقف رسالة خفية: أن الوقت قد حان لأن أتركه أيضًا، لا خوفًا من الموت، بل احترامًا للحياة.

ثم مضت ثمان سنوات لم ألمس فيها سيجارة، رغم أن حنيني إليها لم يغادرني يومًا. كنت أحبها وأحلم بها بصراحةٍ لا أخجل منها، واشتاق لرائحتها، وأرتاح لوجودي بين المدخنين كما يحنّ إنسانٌ لصديقٍ قديم يعرف أنه أذاه، لكنه لا يستطيع أن يكرهه.

ثم طرأت مشكلة عائلية عدت على أثرها إلى التدخين لمدة ثلاث سنوات. لم يصدق أحد أني قادر على الإقلاع مجددًا، فقد عرفني الناس دائمًا بسيجارتي المرافقة لي كظلي. كانوا يرون فيها جزءًا من شخصيتي، من حضوري، من طباعي وربما من قلقي الدائم. ومع ذلك... فعلتها. توقفت مجددًا، ونجحت هذه المرة،

وما زلت بعيدًا عنه إلى يومنا هذا ولله الحمد والشكر.

لم أكرهه يومًا، وهذه جملةٌ أعرف أنها تُؤخذ عليّ، لكنها الحقيقة.

أستطيع أن أتحدث لساعاتٍ عن أضرار التدخين، وإحصائياته وعن سمومه وآثاره الصحية، لكن قصتي هنا معه ليست بحثًا طبيًا، بل حكاية إنسانٍ تعلّم أن بعض المعارك لا تُخاض بالكراهية، بل بالوعي، والصبر، واحترام النفس والآخرين.

فالإقلاع عن التدخين لم يكن انتصارًا على السيجارة فقط، بل مصالحةً مع النفس.

★★★

# الطعام كمرآة للثقافة: من موائد تونس إلى أعراس عمّان:

الطعام ليس مجرد حاجة بيولوجية، بل مرآة لهوية، وتجسيد لفلسفة شعب في التعامل مع الحياة. كل طبق يحكي قصة، وكل مائدة تروي سيرة مجتمع، وكل طقس حولها يكشف عن طبقات من التحضّر الاجتماعي والتطوّر الثقافي.

في تونس، يتشابه طبق الكسكسي مع نظيره المغربي في المكونات، لكن الطقوس المحيطة بالتحضير والتقديم تختلف، لتعكس فروقات في الإيقاع الزمني والاجتماعي للوجبة. في المقابل، ينعكس الطابع شبه الصحراوي للأردن على ثقافته الغذائية؛ فالأردنيون يفضّلون أطباق اللحوم والدواجن بشكل كبير، لدرجة أن الوجبة التي لا تحتوي على اللحم تُعد «ناقصة» في العُرف الشعبي. وهذا منظور ربما يحتاج إلى مراجعة في ضوء التوجهات الصحية العالمية المعاصرة.

أما المطبخ اليمني، رغم التحديات، يحافظ على نمط غذائي غني بالخضار والبقوليات، تعبيراً عن ارتباط عضوي بالأرض. أما في ثقافة الأكل في الصين، فطقوس الأكل تشكّل فلسفة بحد ذاتها؛ حيث يُقدَّم أكثر من عشرة أطباق مختلفة، ويتطلب تناولها وقتاً وتفكيراً، وكأنك تدرّب نفسك على الصبر والتركيز من خلال الطعام،

ما يعكس طول النفس والعمق الحضاري المتجذر. وعلى النقيض، في ثقافتنا المحلية، غالبًا ما تُختصر الوجبة في دقائق قليلة، تُقاس بمدى الشبع لا بجودة التجربة أو الحوار حول المائدة.

أما في الأعراس الأردنية، فمشهد التدافع نحو المناسف، وتناول اللحم بالأيدي بسرعة فائقة، ثم إطلاق صوت «يخلف عليكم!» إيذاناً بانتهاء المائدة، قد يراه الزائر الأجنبي كـ«ساحة معركة» لا «وليمة». هذه التساؤلات المشروعة تضيء زاوية مختلفة من عادات نمارسها تلقائيًا دون تفكير: لماذا نصرخ؟ لماذا نتدافع؟ لماذا لا نأكل ببطء؟ ولماذا لا نفصل بين الكرم والسرعة؟

علينا أن نعيد التأمل في تفاصيل ممارساتنا اليومية حول الطعام، لأنها تختصر الكثير مما نكون... ومن نريد أن نكون.

★★★

## في يومهم... نتعلم من الصمت الوقور:

يشهد عالمنا العربي، كما سائر مناطق العالم، تحوّلًا عميقًا في تركيبته السكانية؛ إذ تتزايد أعداد كبار السن عامًا بعد عام، نتيجة لتحسن مستويات المعيشة والرعاية الصحية وارتفاع متوسط العمر. هذه الظاهرة، التي كانت تُرى يومًا علامةً على التحضر في الدول المتقدمة، باتت اليوم ملمحًا واضحًا في مجتمعاتنا العربية من المحيط إلى الخليج، حيث يعيش الملايين من الآباء والأمهات أطول مما عاشته الأجيال السابقة، لكن في واقعٍ اجتماعي واقتصادي جديد يختلف عمّا عرفوه.

تشير التقديرات إلى أن نحو ٦٪ من سكان العالم العربي تجاوزوا سن الستين، وهي نسبة يُتوقع أن تتضاعف لتصل إلى أكثر من ١١٪ بحلول عام ٢٠٥٠. وفي بعض الدول مثل تونس ولبنان والمغرب، تقترب هذه النسبة من ١٠٪، ما يعكس تحولًا ديموغرافيًا يستحق التأمل لا القلق. فالمجتمعات التي يطول فيها العمر لا تشيخ، بل تنضج في خبرتها وتزداد عمقًا في إنسانيتها.

ويأتي الأول من تشرين الأول (أكتوبر) ليذكّرنا بهذه الحقيقة، حيث يحتفى العالم باليوم الدولي لكبار السن، وهو يوم لا يقتصر على الاحتفال الرمزي، بل يمثل دعوة صادقة لإعادة النظر في مكانة الكبار بيننا. ففي زمنٍ يركض فيه كل شيء بسرعة، من التكنولوجيا

إلى العلاقات، يُذكّرنا كبارنا بقيمة البطء الجميل، وبأن في الصمت حكمة، وفي التجربة دروسًا لا تُشترى.

إنّ واقع الشيخوخة في منطقتنا ليس تحديًا، بل فرصة لتجديد الروابط الاجتماعية التي كانت يومًا جوهر الحياة العربية. في الريف والمدينة، في البادية والقرية، لطالما كان كبير العائلة هو المرجع، وصوته فصلًا في الرأي، وكلمته ميزانًا بين الخلاف والرضا. لكن مع التحولات الحديثة، باتت هذه المكانة بحاجة إلى إحياءٍ اجتماعي وثقافي، يعيد الاعتبار لقيمة الحكمة والاحترام، ويُعيد للأسرة العربية تماسكها الطبيعي.

ولعل أجمل ما في مجتمعاتنا هو هذا الاحترام الفطري للكبار، الذي يظهر في لغتنا قبل سلوكنا: «عمّي»، «خالتي»، «سيدي»، «حجّة». كلماتٌ بسيطة، لكنها تختصر قرونًا من المودة والوفاء. فمهما تغيّر الزمن، تبقى هذه اللغة شاهدة على عمق الأخلاق العربية التي ما زالت تمنح الشيخ وقارًا، وتُلبسه هيبةً من المحبة لا من الخوف.

اليوم، وبينما تنشغل الأمم بإعداد سياساتٍ لتقاطع الأجيال، نحن أحوج ما نكون إلى إحياء قيمنا التي سبقت كل السياسات. فالكبار لا يحتاجون فقط إلى ضمان صحي أو دخل تقاعدي، بل إلى نظرة تقدير، وإحساسٍ بالانتماء، ومساحةٍ من الحضور في العائلة والمجتمع. إن كبارنا ليسوا ظلًا للماضي، بل جذوره التي تروي الحاضر. هم الذين بنوا، وربّوا، وأخلصوا، وحافظوا على تماسك

الأمـة في أصعـب مراحلهـا. وحـين نكرمهـم اليـوم، فنحـن في الحقيقـة نكـرم أنفسـنا، ونصـون المعنـى الإنسـاني فينـا قبـل أي شيء آخر.

كل التقديـر والامتنـان لكبارنـا في كل بيـتٍ وقريـةٍ ومدينـةٍ عربيـة... فهـم الذين علّمونـا أن الحياة لا تُقاس بطول السـنوات، بل بعمـق الأثـر، وبصـدق العطـاء حـين يمر الزمـن بوقـارٍ وصمـتٍ نبيل.

★★★

# اليوم العالمي للرجل:

كتب زميلي وصديقي العزيز الدكتور هيثم بشير عن اليوم العالمي للرجل، وقال، محقًا، إن المناسبة مرّت مرور النسيم... لا أحد شعر بها، لا احتفاء ولا حتى "إشارة إعجاب"! وكأن يوم الرجل أقل شأنًا من يوم الشجرة أو يوم القهوة أو حتى يوم التربة.

ثم في اليوم التالي صادفت في احدى شوارع العاصمة في تونس مبنى رسميًا لوزارة تحمل اسم " وزارة الأسرة والمرأة والطفولة وكبار السن"، و للأسف لا ذكر إلى الرجل مرة اخرى. الرجل، يا سادة، خارج القائمة تمامًا! كأنما الوزارة، كما هو الحال في كثير من الوزارات في عالمنا، تقول له بكل هدوء: "تدبّر أمرك... نحن مشغولون بالبشر الحقيقيين!"

وهنا تذكرت كلمات الدكتور هيثم عن يومٍ لا يحتفل به أحد، فوجدت الصورة تُكمل النظرية: إذا كانت وزارة كاملة لا تضع الرجل ضمن اختصاصاتها، وما نلمسه في أكثر من بلد، فهل نتوقع من العالم أن يتذكره في ١٩ نوفمبر؟

هذه المفارقة العالمية التونسية الجميلة جعلتني أبتسم، وأقول: حقًا... لا بواكي لنا. لنا الله... لنا الله أينما رحلنا، وأينما كنّا، وأينما ذهبنا. ومع ذلك وبكل محبة، حتى لو لم يحتفل بكم أحد، وحتى لو كانت الوزارات تعتقد أنكم آخر من يحتاج الرعاية! كل عام وأنتم بخير يا رجال العالم...

# أبو صابر... ذاكرة القرية وصبر الأرض:

في زمن تُخلط فيه الرموز، يبقى الحمار (أبو صابر) شاهدًا على أن الذكاء ليس في الضجيج، بل في صبر الذاكرة، وصدق العمل، وعناد الاجتهاد.

في عالم يميل إلى اختزال الرموز وسحق المعاني خلف موجات التهكم والتسطيح، يبقى الحمار أحد أكثر الكائنات التي ظُلمت رمزيًا. فرمز الحمار الذي ارتبط في الخيال الشعبي بالغباء والبطء، يخفي وراءه دلالات مدهشة عن الذاكرة القوية، والصبر الطويل، والعمل الدؤوب الصامت. ولسخرية القدر، فإن هذا الحيوان الذي يُستهزأ به في الأمثال، هو ذاته الذي حمل على ظهره فصول الحضارات، وشارك في بناء القرى، وحرث الأرض، ورافق الإنسان في صمته وتعبه، دون أن يطلب شيئًا سوى فتات عيش وفسحة ظل.

في زمن طفولتي، كان الحمار مشهدًا مألوفًا في تفاصيل الحياة اليومية، لا سيما في الأحياء القديمة حيث تتشابك الأدراج الضيقة والممرات الصاعدة بين البيوت. أذكره جيدًا وهو يرافق عامل النظافة في مشهد صباحي صامت، محملاً بأثقال القمامة بكل صبر، ويتسلل بها إلى الأزقة التي لا تصلها المركبات. لم تكن تلك مجرد وسيلة نقل، بل كان الحمار يُسلّم لعامل النظافة من قِبل البلدية كعهده يومية، يُحافظ عليه كما يُحافظ على أبنائه، يُعيده في نهاية

اليـوم، ويسـتلمه في صبـاح الغـد، وكأن بينهما عقداً صامتـاً من الوفاء المتبادل.

ورغـم بسـاطته الظاهـرة، لم يسـلم الحـمار مـن اسـتغلال البـشر حتـى في الظـلال المعتمـة مـن الاقتصـاد الخفي. فقـد كان، ولا يزال في بعـض المناطـق، يُسـتخدم في عمليـات التهريب عـبر الحـدود الجبلية والريفية الوعرة، حيث لا تصل السـيارات ولا تُثير خطواته الشـبهات. يُحمَّـل عـلى ظهـره ما خـفّ وزنه وغـلا ثمنه، ويتقـدم بخطـاه الواثقة ليـلاً في مسـاراتٍ يعرفهـا حفظًـا بعـد تدريـب. وغالبًا ما يُـترك الحمار ليتحـرّك وحـده، دون دليـل، نحو الجهة الأخـرى، وكأنه شريك صامت في جريمـة لا يفهمهـا، يـؤدي دوره بصـدق ولا يسـأل، ولا يفـاوض، ولا يخـون الطريق.

في الشـعر العـربي، حضر الحـمار بوصفه كائنًا واقعيًـا ورمزًا دلاليًا في آن واحـد، فظهـر في سـياقات متعـددة، مـن الوصـف اليومـي إلى التوظيـف البلاغـي الحـاد. وقـد اسـتُخدم في بعـض الكتابـات ذات النزعـة الصوفيـة رمـزًا للنفـس الغافلـة أو غـير المروّضـة، التـي تحتاج إلى تهذيـب وكبـح، لا عـلى سـبيل القـدح بقـدر ما هو توصيـف لحال إنسـاني داخلي.

أمـا في شـعر الهجـاء، فقـد اتخـذ الحمار دلالة قاسـية، تُسـتحضر للتقليـل مـن الخصـم أو النيـل مـن مكانتـه الاجتماعيـة. ومـن ذلـك بيـت هجـائي قـاسٍ متـداول في المـوروث، جـاء فيـه:

"وأنا لنضرب رأس كل قبيلة... وأبوك خلف أتانة يتقمل"

بيـت قاسٍ يُنسـب إلى جريـر أو الفرزدق، يعكـس حضور الحمار في الموروث الشـعبي الشعري.

أمـا في السياسـة الحديثـة، فقـد شـهد رمـز الحـمار تحـوّلًا لافتًـا في دلالتـه. ففـي الولايـات المتحـدة، ارتبـط بالحـزب الديمقراطـي منذ القـرن التاسـع عـشر، بعد أن اسـتخدم خصوم أندرو جاكسـون وصف «الحـمار» للسـخرية منـه. غير أن هـذا الوصف الهجائي تم الاسـتفادة منـه بتحويلـه إلى رمـز دالّ عـلى الصبر والعنـاد والاقـتراب مـن عامـة النـاس، قبـل أن يترسـخ لاحقًـا بوصفـه علامـة غـير رسـمية للحـزب الديمقراطـي. كـما اسـتخدمته نقابـات العـمال في أمريـكا اللاتينيـة وأفريقيـا كرمـز للكـدح والصـبر. أمـا في أوروبـا، فقـد أصبـح شـعارًا لحمـلات بيئيـة تدعـو للنقـل المسـتدام.

وفي زاويـة أخـرى مـن الذاكـرة، أسـتعيد وجوه بعـض الأطفال في الحـيّ، أعـرف منهـم واحـدًا أو اثنـين قيل إنهـم شربوا حليـب الحمار، ربمـا بدافـع الحاجـة، أو طلبًـا للشـفاء من مـرض عضال، أو تماشـياً مع نصيحـة عجـوز تؤمـن ببركـة اللـبن الطبيعي. ومـع ذلك لم يسـلم هذا الحيـوان الـبريء مـن أذى الأطفـال والنـاس، فـكان كثـيراً مـا يتعـرض للـضرب المـبرح، ولطالمـا رأيت دمعتـه تنهار.

لحليـب الحـمار فوائـد صحيـة وجماليـة، فهـو غنـي بالبروتينات وأوميغـا ٣، يُسـتخدم في العنايـة بالبـشرة، ولـه تطبيقـات طبيـة وغذائيـة واسـعة، خصوصًـا في أوروبـا. ويُنتـج بكميـات قليلـة (٠,٥--١,٣ لـتر في اليـوم)، مـا يجعلـه نـادرًا وثمينًـا. يُذكر من فوائده تحسـين

مناعة الجسم، ودعم العظام، وخفض الكوليسترول، وعلاج بعض الأمراض الجلدية.

دينياً، تختلف الآراء، ففي الإسلام هناك من حرّمه وهناك من أجازه للتداوي، وفي اليهودية يعد نجسًا، أما في المسيحية والديانات الشرقية فلا تحريم صريح له.

اليوم، يواجه الحمار أزمة عالمية بسبب الطلب الصيني على جلده لإنتاج مادة «إيجياو» الطبية، مما أدى لتراجع أعداده في الصين من ما يقارب ١١ مليون إلى أقل من ٦ ملايين، وظهور أسواق ذبح في إفريقيا. وقد وصل عدد الحمير في الأردن إلى ما يقارب ٦٢٠٠ فقط عام ٢٠٢٢، بعدما كان قريباً من ٩٠٠٠ عام ٢٠١٠، وهو ما دفع وزارة الزراعة لإعلان أنه على مشارف الانقراض. بينما لا تزال مصر من الدول العربية ذات الكثافة العالية في عدد الحمير، تليها دو مثل المغرب واليمن.

في النهاية، لم يكن الحمار كائنًا هامشيًا في حياة القرى والمدن، بل كان مرآةً لقيم العمل الصامت، والصبر الذي لا يشكو، والوفاء الذي لا يتكلم. ربما آن الأوان أن نعيد له مكانته، لا في الزرائب، بل في الذاكرة الجماعية التي لتي غيّبت حضوره تحت صخب السيارات وزهو التكنولوجيا.

★★★

# الإنهاك بين الجسد والنفس: واقع يعيشه كثيرون في صمت:

تتعمق أزمة الإنسان المعاصر في العالم العربي مع اتساع الفجوة بين الجهد المبذول والمردود النفسي، في ظل ظروف حياتية ومهنية باتت ترهق الجسد وتستنزف الروح. يتجلّى هذا الإرهاق في نماذج متكررة تعكس حجم المعاناة اليومية، لا بفعل المرض وحده، بل نتيجة تراكم الضغوط والتناقضات بين المهام المرهقة وفقدان المعنى.

العديد من العاملين في القطاعات العامة والدولية باتوا يعيشون دوامة من العمل المتواصل، الذي لا تبرره حاجة إنتاجية بقدر ما يفرضه النظام الوظيفي أو التزامات شكلية لا تضيف إلى القيمة الحقيقية شيئًا. تتفاقم هذه الأزمة حين يتزامن الإرهاق المهني مع تحديات صحية، فيواصل الفرد أداء أعماله اليومية في محاولة لصرف النظر عن ألمه أو التخفيف من وطأة الشعور بالعجز.

العمل من المنزل، الذي يفترض أن يكون مساحة للراحة والمرونة، يتحوّل في هذه الحالات إلى عبء نفسي آخر. فالعزلة، وغياب التفاعل الإنساني، وانعدام الروتين الاجتماعي، كلها عوامل

تساهم في تفريغ الحياة من طاقتها الإيجابية. ويتحول الوقت إلى سلسلة من المهام الطويلة التي تُنجز بدافع الهروب من التفكير، وليس بدافع الطموح أو الرغبة في الإنجاز.

من ناحية أخرى، يشكل السفر المستمر لحضور اجتماعات دولية ثقيلة المحتوى والتفاصيل عاملًا إضافيًا في استنزاف الطاقة، خصوصًا عندما يشعر الفرد أن هذه الاجتماعات لا تعود بفائدة حقيقية، بل تكرس نمطًا من العمل الرسمي الذي يبتعد عن الاحتكاك بالواقع الفعلي والمجتمعات التي يفترض خدمتها. ويتعمق هذا الإحساس بالفجوة حين يُقارن ما يُنفق على المؤتمرات والمناسبات الدولية مع مآسي الفقر، وسوء الخدمات، وموت الأطفال جوعًا في بعض مناطق العالم.

الاحتراق النفسي لا يعود مجرد حالة طارئة، بل يتحول إلى نمط يومي. يبدأ بفقدان الدافع، ثم يتحوّل إلى شعور بالكراهية تجاه العمل، وتبلد في التفاعل مع المهام، ثم رغبة عميقة في الانسحاب من المجال الوظيفي نحو مساحات إنسانية أكثر هدوءًا وصدقًا، كالمشاريع الصغيرة، والمهن البديلة، وحتى التوقف المؤقت، كلها أفكار تبدأ كحلم ثم تتحول إلى حاجة ملحة، حين يُصبح العمل عبئًا نفسيًا وجسديًا معًا.

وفي ظل هذا الواقع، تفقد الحياة اليومية بريقها، فالتكريمات واللقاءات الطبية والأنشطة الاجتماعية لا تعود قادرة على كسر

الرتابـة، ولا عـلى مـلء الفراغ الوجـداني. فيظل الجسـد المنهك يصارع ليسـتمر، وتحـاول النفـس اسـتعادة المعنـى في بيئـة فقـدت التـوازن بـين الأداء الإنسـاني والقيـم التـي تحكمـه. إنهـا صـورة صادقـة لواقـع يعيشـه كثـيرون بصمـت، دون أن يُـدرك المجتمـع عمق مـا يمرون به.

آن الأوان لإعـادة التفكـير في أسـاليب العمـل، وأولويـات الحياة، وجـدوى النظـام المهنـي إذا افتقر للرحمـة، والرؤيـة، والتوازن.

★★★

# الباب الخامس

## الفكر والثقافة

# أدب السجون: حين يكتب الجرح على جدار الصمت:

في زاويـةٍ معتمـة مـن زنزانة بلا نافـذة، وبلا كتـب أو أوراق، وُلد أدبٌ مـن نـوع خـاص؛ لا يُصـاغ في صالونـات الأدب، بـل ينبـت بـين الجـدران الرطبـة، وتحـت السـقف المنخفـض، وفي صـدور لم يبـقَ لها سـوى الكلـمات. إنـه أدب السـجون، صـوت مـن لا صوت لـه، وكتابة تُقـاوم الاختنـاق وتُصغـي لمـا لا يُقال.

هـذا الأدب لا يكتبـه المراقبـون مـن بعيد، بـل من عاشـوا القيد، وشـهدوا العزلـة، وناجـوا أنفسـهم في عتمـة لا تنتهـي. حروفـه لا تأتي مـن الخيـال، بـل من التجربـة الموجعـة والتحدي الفكري. هو شـهادة عـلى زمـنٍ تحـوّل فيه الـرأي إلى تهمـة، والقصيدة إلى تهديـد، والفكرة إلى ذريعـة للاعتقـال. في هـذا الأدب، تصبـح الورقـة زنزانـة بديلـة، والقلـم منفـذًا للهـواء، والكلمـة شـكلًا من أشـكال المقاومـة الهادئة.

في «شرق المتوسـط»، كتـب عبـد الرحمـن منيـف عـن التعذيـب بوصفـه جـزءًا بنيويًـا مـن النظـام، لا خلـلًا عارضًـا فيـه. وفي العـالم العـربي، كـما في تجـارب إنسـانية أوسـع، تحـوّل السـجن إلى مصنـع للفكـر لا ميدانًـا للنـدب. نلسـون مانديـلا، أنطونيـو غرامـشي، مهدي عامـل، ومـروان البرغـوثي؛ جميعهم حوّلـوا قيودهم إلى نصـوص حرّة. كـما برزت شـهادات نسـوية مدهشـة، كتبت عـن الوحـدة والانتظار، كـما لم يكتبـه أحد.

ما يُميز أدب السجون هو صدقه الخام، فلا مكان فيه للتكلّف أو التجميل. فحين يواجه الإنسان جدارًا أبكم لساعات أو سنوات، لا يعود بحاجة إلى زينة اللغة، بل إلى خلاصها المباشر. ورغم ذلك، لا يستدرّ هذا الأدب الشفقة، بل يمنح القارئ فرصةً نادرة ليعيش تجربة لا تنقلها نشرات الأخبار. هذا الأدب ليس سياسيًا فحسب، بل إنساني بامتياز. يكتب عن الجوع والخوف، عن الأحلام المحطّمة، والأمهات اللواتي ينتظرن خلف الأبواب. عن الأسئلة الكبرى: ما معنى الحرية؟ ولماذا يُعاقب المرء على فكرة؟ وما جدوى الصمود؟ وربما أعظم ما في هذا الأدب أنه لا يقدّم أجوبة، بل يُجبرك على إعادة طرح الأسئلة... بصوتٍ مرتعش.

لأنه يُكتب في الظل، كثيرًا ما يكون عرضة للتهميش أو النسيان. لكن أثره يظل حيًا، لأنه ينقل لحظة صدق نادرة، ويُعبّر عن وعي بالحياة في أقسى ظروفها. ولعل المفارقة أن أدب السجون لا يزدهر فقط في أزمنة الاستبداد المادي، بل يستمر في لحظات «التحول» أيضًا، لأن القيد لم يعد ماديًا فحسب، بل رمزيًا وفكريًا واجتماعيًا. في عالم مفتوح شكليًا، تُعاد اليوم صياغة الأسوار باسم الأمن، أو الوطنية، أو حتى الدين. وتُسجن الأفكار وإن بقي أصحابها خارج القضبان.

لهذا، فإن أدب السجون ليس فقط تأريخًا للظلم، بل هو أيضا يذكّرنا بأن الإنسان، حين يُمنع من أن يكون حرًّا، لا يصرخ... بل يكتب.

# الرفاهية الزائدة... حين تُغلق النوافذ أمام الروح وتُربّي الظلّ لا الأصل:

في كثير من البيوت العربية المعاصرة، باتت الرفاهية الزائدة حاضرة بقوة، لا بوصفها إنجازًا أو ثمرة جهد، بل كحقّ مكتسب يُقدَّم للأبناء بلا قيد أو شرط. الآباء والأمهات، وفي مسعاهم الطبيعي لتأمين «أفضل حياة» لأبنائهم، غالبًا ما يفرطون في العطاء المادي دون أن يرافقه بناء داخلي أو حدود نفسية واضحة.

نرى طفلاً لم يبلغ العاشرة يتحدث عن أنواع الهواتف والساعات والماركات العالمية كأنها أساسيات في الحياة ونسمع فتاة صغيرة تصف صديقتها بالفقيرة لأنها لا تسافر في كل عطلة أو لأن فستانها لا يحمل شعاراً لماركة مشهورة. وفي بعض البيوت، صار الحديث عن «أي فندق سنسكن؟» و«كم هدية سأحصل عليها؟» جزءًا من لغة الأطفال اليومية، بينما تغيب كلمات مثل الشكر، الصبر، والرضا.

هذه الرفاهية الزائدة لا تُنتج سعادة، بل تُنتج هشاشة، فهي تُربي شخصية تعتمد على الامتلاك لا على الفهم، وتخلق علاقة متوترة مع العالم، قائمة على المقارنة والطلب لا على القناعة والانضباط.

لكننا نلحظ فارقًا لافتًا في بعض المناطق الريفية أو المجتمعات التي لا تزال تحافظ على روحها المتوازنة، نرى أبناءً يُربَّون على البساطة والاحترام، لا على التفاخر والاقتناء. قد يعيش الأبناء بإمكانيات أقل بكثير، ولكنهم يحملون من الرصانة والتهذيب والامتنان ما لا تجده في أبناء المدن الثرية أحيانًا.

في تلك البيئات، تُعطى الأشياء بقيمة، وتُربّى النفوس على أن ما لديك هو كافٍ إن أحسنت النظر إليه ويُغذّى الطفل على الإحساس لا التكديس، وعلى العلاقة الصادقة مع الأشياء، لا على المظاهر التي تخدع وتستهلك.

واللافت أن هذه المقارنة ليست بين غني وفقير، بل بين فلسفتين: الأولى تُغدق وتُلهي، والثانية تُوازن وتُهذّب. الأولى ترى في المنح الدائم تعبيراً عن الحب، والثانية ترى في الاعتدال والتوجيه الحقيقي أصدق تعبير.

في العالم العربي اليوم، لا تكمن الحاجة في زيادة الرفاهية بقدر ما تكمن في إعادة الاعتبار للمعنى. فالتربية الحكيمة لا تُقاس بما يُمنح من أشياء، بل بما يُغرس في النفوس من قيم واتزان. المغالاة في العطاء قد تُغفل التربية الداخلية، وتُنتج نماذج مشوشة تبحث عن قيمتها في ما تملك، لا في ما تكون.

فالرفاهية الزائدة، إذا لم تكن متبوعة بتوجيه متوازن، قد تتحول من نعمة إلى نقمة خفية كما هو الحال اليوم. إذ لا تُقاس قيمة الإنسان بما يرتديه أو يركبه، بل بما يحمله في داخله من

**نُبلٍ وتواضع، وما يقدّمه من احترام للآخرين وتقدير للبساطة. المجتمعات التي تعي هذا المعنى، هي الأقدر على تربية جيل ناضج، لا تجرّه المظاهر ولا تستهلكه القشور، بل يقف ثابتًا في وجه الحياة، واثقًا من ذاته، ممتلئًا بالمعنى لا بالمقتنيات.**

★★★

# الشاعرة روضة الحاج... شاعرة النيلين وسيدة القصيدة الصادقة:

أحببتُ السمراء روضة الحاج حسن قبل أكثر من خمسة عشر عامًا، حين كانت القصيدة تسير بجوارها، لا أمامها. لم تكن قد صعدت منابر الوطن العربي، ولا ظهرت في بريق المسابقات، بل كانت كما الشعر حين يُولد من الصدق: هادئًا، حقيقيًّا، موجعًا وجميلًا.

عرفتها قبل أن تحتفي بها قطر، وتصفق لها الإمارات، وتتغنّى بها القاهرة. التقيها لاحقًا في السودان، في لقاء سعت إليه الروح قبل الجسد. كانت كما تخيّلتها: امرأة تسكنها القصيدة، لا تُشبه أحدًا، تحمل وجعها في كف، وكبرياءها في الأخرى، وتنحت من شتاتها مجدًا شعريًّا خالصًا. ما زلت أذكر وقع كلماتها الأولى:

"اليوم أوقن أن هذا القلب مثقوب ومجروح ومهزوم وهذا أوان البوح يا كلّ الجراح تبرّجي»...

لم تكن تُلقي شعرًا بقدر ما كانت تُفصح عن ذاتٍ أنهكتها التجربة. لم تخشَ أن تعترف، أن تقول:

"كـم قاومـت، كـم كابرت، كـم قـررت... ثم نكصت عـن عهدي، أجل»...

روضـة الحـاج ليسـت شـاعرة مألوفـة، بـل حالـة نـادرة، حظيت بلقـب شـاعرة النيلين لأنها امتـداد طبيعي لجريـان الحرف بين ضفتي المعانـاة والكرامـة. لا تكتـب لتُبهر، بـل لتُخلّص الحـروف من الزيف. وفي قصيدتهـا «مطـر... مطـر», جـاءت مبللـة كأنها خرجـت من رحم الغيـم، تنفـض عـن الروح غبـار الخـذلان، وتعيد صياغـة الحب:

"قلـتَ المطـر والليـلُ أجمـلُ مـا يكـونُ عـلى يديـكَ إذا انهمـر... وأنـا التـي خذلـتْ مواسـمها السـنونُ وأقبلـتْ نحـو المطـر»...

كانـت تنقّـي اللغـة مـن شـوائب الادّعـاء، وتجعـل مـن كل بيتٍ احتـمالاً جديـدًا للخـلاص. ومنـذ مشـاركاتها في سـوق عـكاظ وشـاعرة المليـون، بقيـت كـما هـي، مختلفـة. حضورهـا لا يعلـو بالصـوت، بـل بالمعنـى. لا تنافـس، بـل تثبـت. وكلـما قرأتها او سـمعها، شـعرتُ أنها تكتـب لا مـن رفـاه اللغـة، بـل مـن ضريبـة الحياة:

«أنـا مـا تركـت لمقبـل الأيـام شـيئًا إذ ظننتـك آخـر التطـواف في الدنيـا فسرحـتُ المراكـب كلهـا... وقصصـتُ عـن قلبـي الجنـاح»

قارنتهـا مـرارًا بمـي زيـادة، لا لأنهـما تتشـابهان في الملامـح، بـل لأنهـما تتشـابهان في الجـرح الناطـق، في اللغـة المتعففـة، في حضور لا تُخطئـه الروح:

«أنـا اعتزلـتُ الناس والدنيا... فما أنفقـتَ لي من أجل أن نبقى؟! ومـاذا قد جنيت؟!!"

روضـة الحـاج ليسـت فقـط ابنـة النيل، بـل ابنتهما معًـا: الأبيض والأزرق. هـي تلـك التـي تمـضي وتبقـى، تُغـادر وتـترك أثـرًا، تُحـب وتُكابـر، تكتـب وتَشـفي:

"إن قلتَ أو إن لم تقل أنا قد مضيت»...

" لكنهـا، في الحقيقـة، لم تمـضِ، بـل بقيـت و مـا زالـت فينـا... شـاعرة لا تنتهـي.

★★★

# دوستويفسكي... حين نطق الألم بالحكمة:

فيودور دوستويفسكي ليس مجرّد اسم في تاريخ الأدب الروسي، بل تجربة إنسانية فريدة، اختزلت معاناة الإنسان في لغة نابضة، مفعمة بالتناقض، وموغلة في الصدق. لم يكن يكتب حكايات تقرأ ثم تُنسى، بل كان يفتح أبوابًا داخل النفس، ويضع القارئ وجهًا لوجه أمام ذاته، في مرايا شخصياته المتأرجحة بين الإيمان والشك، بين الرحمة والقسوة، بين النور والهاوية.

بلا أدوات تحليل أو مدارس نفسية، دخل دوستويفسكي أعمق زوايا النفس البشرية، كما أشار سيغموند فرويد الذي وصفه بأنه فهم الإنسان أكثر مما يفعل التحليل النفسي نفسه. عاش ما كتب، وتألم بما كتب، وجعل من كل تجربة قاسية تربةً يزرع فيها أسئلته الكبرى.

ولد من رحم المعاناة لا المجاز؛ سُجن، ونُفي، وكاد يُعدم، عاش الفقر والخذلان والقمار والموت المؤجل. لكنه لم يتاجر بألمه، ولم يكتب ليُبكي أحدًا، بل حوّل الألم إلى مختبر لفهم النفس حين تكون في أقصى حالاتها هشاشة، أو في أقسى تجلياتها صلابة.

في رواياته الكبرى، الجريمة والعقاب، الأخوة كارامازوف، مذكرات من تحت الأرض، لم يصنع شخصيات، بل خلق أرواحًا تمشي في الورق، لا تنتهي بانتهاء الرواية. الصراع عنده ليس مجرد

صراع أخلاقي بين الخير والشر، بل صراع كينوني بين الحرية والذنب، بين العقل والرغبة، بين وجود الإنسان وسقوطه الداخلي.

دوستويفسكي لم يكن كاتبًا روائيًا فقط، بل فيلسوفاً بالحبر، ومحللاً نفسياً بالكلمة، ومُنقّباً عن الحقيقة خلف حجاب اللغة. كتاباته ليست للترفيه، بل للمواجهة... مواجهة الذات وما تحمله من قلق وغموض وتوقٍ للفهم والخلاص.

تأثر به كبار المفكرين والأدباء في الشرق والغرب: كافكا، نيتشه، سارتر، كامو، جورج أورويل... لم يقرأوه كزميل، بل كمرآةٍ فكرية واجهتهم بأسئلتهم، وألهمتهم أن يعيدوا النظر في الإنسان لا كما يظهر، بل كما يختبئ ويصمت ويتألم.

ورغم مرور قرنين تقريبًا على ولادته، لا تزال كتاباته طازجة، لأن القضايا التي لامسها مثل العزلة والطغيان والحرية والغفران والقلق الوجودي، هي قضايا حاضرة مستمرة. هي لبّ التجربة البشرية، ولذا فإن كلماته تُقرأ كما لو كُتبت هذا الصباح.

دوستويفسكي لا يُقرأ من أجل الاقتباس، ولا يُفهم من قراءة عابرة. هو تجربة تبدأ بسطر، وتنتهي بأن يُعيد القارئ النظر في نفسه وفي تاريخه وفي العالم. كتب عن الألم، لكنه لم يستسلم له؛ بل جعله طريقًا للمعرفة، وسبيلاً إلى الضوء... لا بالوعظ، بل بكشف الحقيقة حين تكون أكثر عُريًا، وأكثر توهجًا في الظلام.

★★★

# الرقص... مرآة الشعوب:

في بواكير عمري، لم يكن الرقص بالنسبة لي مجرد فرجة عابرة أو تسلية لحظية، بل كان نافذتي الأولى إلى العالم. كنت أحضر المهرجانات الشعبية والفعاليات الفولكلورية، وأجلس مأخوذًا أمام الدبكات والرقصات التي تؤدى في الساحات، وكأنها كتاب مفتوح على أرواح الناس. هناك، في تلك اللقاءات، كنت أشعر أنني وجدت بيتًا للتراث، وسبيلًا للتعرّف إلى ثقافات الشعوب. كان من الواجب عليّ أن أتابع هذه الطقوس، وأن أتعلم كيف يعبّر كل شعب عن نفسه بخطوات قد تبدو بسيطة لكنها تختزن تاريخًا كاملًا.

رأيت الدنيا آنذاك من خلال تنوع هذه الرقصات ودلالاتها، فاستهوى الأمر قلبي وعقلي معًا. بدأت أسأل نفسي: كيف نشأت هذه الرقصات؟ ولماذا تختلف من مكان إلى آخر؟ وما الذي تعكسه من معانٍ خفية؟ شيئًا فشيئًا، وجدت نفسي أدرسها بوعي أكبر، أحاول أن أفهم رموزها وانعكاساتها الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية. أدركت أن الرقص ليس مجرد بهجة، بل قد يكون صرخة ضد القمع، أو طريقة للاحتفاء بالحياة رغم مرارتها. ففي إفريقيا مثلًا، لم تكن الإيقاعات العنيفة مجرد حركة جسد، بل تعبيرًا عن العنف والاحتجاز والظلم الذي عاشته الشعوب، وكأن الرقص صار وسيلة للمقاومة والبقاء في مواجهة الطغيان.

ومن هذه البوابة، انطلقت رحلتي مع الرقص بوصفه مرآة للشعوب، أحمله في وجداني كجزء من سيرتي، وأراه اليوم بعمق أكبر وهو يكشف عن هوية الإنسان في كل مكان.

في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والصحراء العربية، اتخذ الرقص العربي أشكالًا متعددة، تعكس تنوع الجغرافيا والتقاليد. في بلاد الشام ومصر، ازدهر الرقص الشرقي برشاقته وإيقاعاته المرتبطة بالمقامات الشرقية، فتحول إلى فن قائم بذاته، يحمل معاني الفرح واحتفال الإنسان بالحياة. أما الدبكة، فهي أكثر من مجرد خطوات جماعية؛ إنها إعلان جماعي عن الوحدة والانتماء، إذ تضرب الأقدام الأرض بقوة وكأنها تؤكد الحق في البقاء. وفي شبه الجزيرة العربية وامتداد الصحراء الكبرى، ازدهرت الرقصات البدوية المرتبطة بالقبيلة والسيوف والخيل، مثل العرضة التي تختصر قيم الشجاعة والرجولة والانتماء، بينما حملت شمال إفريقيا طابعًا آخر، إذ امتزجت الإيقاعات الأمازيغية بالموسيقى العربية والإفريقية، فكان الرقص الشعبي المغربي والجزائري مزيجًا نابضًا بالحيوية. ولم يخلُ المشهد من البعد الروحي، حيث ازدهرت الرقصات الصوفية المولوية، فتحولت الدورانات إلى رحلة نحو الصفاء والاتحاد مع الخالق. ومن قلب إفريقيا، ينبض الرقص بإيقاعات الطبول، حيث يتحول الجسد إلى أداة للتواصل مع الطبيعة والأسلاف والأرواح. هناك يصبح الرقص طقسًا للخصوبة والمطر والحصاد، ويغدو الجسد جزءًا من الجماعة، يتحرك معها ككائن واحد نابض بالحياة.

وفي أوروبا، تنوعت الرقصات لتعكس التاريخ والتقاليد، فالفلامنكو في إسبانيا يشتعل على الخشبة، دراميًا وقويًا، يعبر عن الغضب والحب والتمرد معًا، بينما يلتف الأزواج في أوروبا الوسطى بخطوات الفالس الرشيقة، حيث تتجسد الأناقة والانسجام، فيما امتلأت ساحات شرق أوروبا برقصات شعبية جماعية تحمل روح التراث وتؤكد تماسك الجماعة.

أما في أمريكا اللاتينية، فقد وُلد عالم آخر من الرقص، مزج الإرث الإفريقي بالمؤثرات الأوروبية والمحلية، ليخلق طيفًا من الرقصات التي غزت العالم. فالسالسا برقّتها وحيويتها تعكس الانطلاق والعاطفة، والتانغو في الأرجنتين يجسد لحظة رومانسية مشبعة بالتوتر والشغف، حيث يقترب الجسدان ويفترقان في مشهد مليء بالإيقاع. أما السامبا، أيقونة البرازيل، تفجّر طاقة الكرنفالات، بإيقاع صاخب يعبّر عن الاحتفال بلا حدود، وتحولت اللامبادا في الثمانينيات إلى رمز عالمي للرقة والمجون الجميل، صورة مصغرة عن حب اللاتينيين للحياة. وإذا كان الرقص الأوروبي يميل إلى الانضباط والأناقة، فإن الرقص اللاتيني يفيض بالشغف والحرارة، وكأنهما معًا يعكسان وجهين مختلفين للروح الإنسانية، إذ يطلب أحدهما الانسجام، ويحتفل الآخر بالحياة في جنونها.

وفي اليونان، تتجسد رقصة زوربا بوصفها رحلة إنسانية تبدأ ببطء مثقل بالهموم، ثم تتسارع الخطوات شيئًا فشيئًا حتى تنفجر في طاقة صاخبة، كأنها إعلان بأن الحياة أثقل من أن تُحمل إلا بالرقص. ومن هذه الروح وُلدت عادة تكسير الصحون

في الاحتفالات والأعراس، عادة تبدو غريبة للوهلة الأولى، لكنها تحمل معاني عميقة؛ فهي تعبير عن الفرح المطلق، وتطهير من الأحزان والماضي، وإشارة إلى الكرم والتحدي في آن واحد. وحين تجتمع رقصة زوربا مع صوت الصحون المتكسرة، يكتمل المشهد اليوناني الذي يقول إن الحياة، مهما قست، لا بد أن تُعاش بكل ما فيها من جنون وبهجة.

وهكذا، من رقصات الصحراء العربية إلى إيقاعات الطبول الإفريقية، ومن أناقة الفالس الأوروبي إلى حرارة السامبا اللاتينية، ومن جنون زوربا إلى روحانية المولوية، يبقى الرقص أكثر من مجرد فن. إنه علاج للجسد والروح، وذاكرة تحفظ هوية الشعوب، ولغة بلا كلمات تبوح بما يعجز الكلام عن قوله، فهي تنطق بالفرح والألم والتمرد والرجاء. فيظل الرقص في نهاية المطاف مرآة صادقة لروح الإنسان.

★★★

# الباب السادس

## تأملات وومضات

## يوميات من ليون ... وتنوع التجارب والثقافات:

ما ميّز إقامتي في ليون لم يكن حجم ما أُنجز أكاديميًا فقط، بل ما تحقق على مستوى الوعي الشخصي، وإعادة ترتيب الأولويات. بدأت علاقتي مع المكان حين خصّصت لي المؤسسة المضيفة سكنًا صغيراً لم تتجاوز مساحته ٤٥ متراً. أنا الذي نشأت في بيوت واسعة، شعرت بالضيق والانزعاج، وطلبت تخصيص مكان أكبر.استقرّ بي الحال أخيراً في شقة بمساحة ٦٥ متراً، لكن ما حدث لاحقًا كان مفارقة لافتة فقد أدركت أن المساحة الواسعة ليست دائمًا نعمة، وأن التكيّف هو مفتاح الراحة، لا الاتساع.

في مبنى المؤسسة، كانت الكافتيريا الواقعة في الطابق الثاني عشر تطلّ على جبال الألب من خلف نوافذ بانورامية واسعة. هناك، كنا نتناول قهوتنا أو غداءنا البسيط بينما تلوّح الجبال من بعيد، كأنها تذكّرنا باتساع العالم وجماله لمن يتأمل. هذا المكان، رغم بساطته، أهداني لحظات تأمل عميقة، تهدّئ صخب الداخل وتمنح مساحة هدوء ضرورية للروح.

كذلك لفتني وجود الجالية العربية، لا سيما من شمال إفريقيا، في بعض ضواحي ليون. تجمعات مكتظة، تحاول الحفاظ على الهوية، لكنها غالبًا ما تعاني من العزلة. الانغلاق الذي اختارته هذه الجاليات خوفًا على أبنائها، حوّلها إلى كنتونات شبه منفصلة عن النسيج

الفرنسي. لم أكن أراهم يندمجون بقدر ما رأيتهم يتحصّنون. كان ذلك مؤلمًا لي، لأنني كنت أرى أن الانتماء يمكن أن يكون جسرًا لا جدارًا، وأن الهوية لا تعني الانغلاق، بل التفاعل والتوازن.

من المواقف الطريفة التي أذكرها كانت زيارة وفد عربي للمؤسسة، حيث ملأ أفراده أطباقهم بأريحية عربية معتادة، ليفاجؤوا لاحقًا بأن الوجبة تُحاسب بحسب الوزن! انتهى الأمر بدفع أحدهم مئات اليوروهات لوجبة غداء واحدة. كان درسًا قاسيًا، لكنه مضحك، وغنيًا بالمعنى الثقافي. كما أتذكر زيارة وفد من جامعة غلاسكو، حيث اندلع نقاش طويل بعد العشاء حول من سيدفع الفاتورة فالبريطانيون رأوا أن الدعوة تعني التكفل، والفرنسيون رأوا أن الدعوة لا تعني سوى الانضمام. في اليوم التالي، دعوتهم إلى غداء على الطريقة العربية، حيث يدفع المضيف، وكان ذلك موضع ارتياح كبير. شعرت يومها أن الطعام، رغم بساطته، جسر ثقافي فعّال.

كنت أشارك بعض زميلاتي من البرازيل حفلات الشواء أيام الآحاد، وكان البعض منهن مولعات بالسفر في عطلات نهاية الأسبوع. بالنسبة لي، كان يوم الأحد يومًا للراحة، والتأمل، والمشي على ضفاف نهر الرون. أما بالنسبة لهن، فكان وقتًا لزيارة إيطاليا أو إسبانيا. حاولت مجاراتهن في البداية، لكنني عدت لاحقًا إلى وتيرتي الهادئة وزياراتي القصيرة للأماكن القريبة.

من بين الزملاء الذين تركوا في نفسي أثرًا، كانت هناك زميلة إيرلندية. لم تكن تشبه الأوروبيين في شيء؛ في حديثها حس نقدي، وفي روحها نفَس ثوري. كانت تؤمن بالحرية بمعناها العميق،

وتحمل مزاجًا مختلفًا حتى عن البريطانيين أنفسهم. لم أندهش حين عرفت أن للإيرلنديين تاريخًا طويلًا في مقاومة الهيمنة والتمييز.

ومن أبرز ما شدَّني أيضًا المطبخ الفرنسي، الذي يعتبر من أرقى المطابخ الأوروبية. حيث جعل تنوعه، وتوازنه، وفن تقديمه كل وجبة تجربة بصرية وذوقية متكاملة. كانت محلات الشوكولاتة منتشرة في كل زاوية، لكن كان الفرنسيين يتناولون قطعة صغيرة مع فنجان قهوة، بينما نميل كعرب إلى مضاعفة الكمية! كنت أتعجب كيف يحافظون على هذا التوازن بين الجبنة الفاخرة والشوكولاتة من جهة، وضبط الكمية من جهة أخرى. أذكر أيضًا حوارًا طريفًا دار بين بعض الزملاء البريطانيين والفرنسيين حول الترتيب «الصحيح» لتناول الجبنة والشوكولاتة بعد الوجبة: من يسبق من؟ وهل الأفضل إنهاء الوجبة بالجبن أم بالشوكولاتة؟ بدا الحوار سخيفًا في البداية، لكنه كشف لي كيف يمكن للاختلافات الثقافية أن تنسحب حتى إلى تفاصيل الطاولة.

ومن بين التجارب التي لا تُنسى، كانت تجربة «الفوندو»، ذلك الطبق الشهير ذو الأصول السويسرية -الفرنسية، والذي يعود إلى المناطق الجبلية الباردة. إعداد هذا الطبق الغني بالجبن الذائب يتطلب فنًا ومهارة، وتناوله طقس اجتماعي بحد ذاته. جلست في أكثر من مناسبة مع أصدقاء من خلفيات متعددة نخوض تجربة «الفوندو» بتفاصيلها، وكان كل شيء فيه، من ترتيب الأدوات، إلى حركة الغمس، إلى التوقيت، يعكس عراقة ثقافية وتقاليد ضاربة في العمق.

في تلك الفترة كنت أتنقل بين فرنسا والولايات المتحدة الأميركية فكانت المقارنة دوما حاضرة من حيث العادات الغذائية، وكان الفرق لافتًا ففي فرنسا، كل شيء محسوب وموزون، والوجبة صغيرة ومنسقة، فيما في أميركا، كل شيء مضاعف، الأحجام، الكميات، وحتى السعرات! كنت أرى أن الوجبة الفرنسية توازي عُشر الوجبة الأميركية، ولكنها تحوي في طياتها ذوقًا وفنًا وتاريخًا.

ذات يوم، جلس إلى جواري شخص أجنبي، سألني فجأة إن كنت من الصحراء. ظننته يمازحني، لكنه تابع قائلاً: «أستطيع أن أعرف من طعامك أنه يخلو من الخضار». كان على حق، لم أكن معتادًا على الخضروات، ولا أتناولها بكثرة. كلامه جعلني أشعر بالخجل، وبدأت منذ ذلك اليوم أضع القليل من الخضار على طبقي.

أوروبا، بوجهها المتنوع، علمتني أن ليس كل شيء يُقال بصوت عالٍ. بعض الفوارق تُكتشف في الفاتورة، وبعضها في طبق الطعام، وبعضها في طريقة المشي، أو في كيف يقول الناس «مرحبًا» دون أن يقصدوا انتظار جواب. ليون، بطيبة أهلها وهدوئها، علّمتني أن التمدن لا يُقاس بسرعة الحركة أو صخب الإنجاز، بل في عمق التأمل واتساع الأفق. لم تكن مجرد مدينة سكنتها لعام أو أكثر، بل كانت مدينة سكنتني، بكل دروسها، ومفارقاتها، ومواقفها التي أعادت ترتيب نظرتي إلى العالم... وإلى نفسي.

## ٢٠٢٥.. عامٌ ثقيل... ومحاولة صادقة للفهم:

بعيدًا عن إنجازات العمل، والتي كانت كثيرة ومتنوعة، كان هذا العام عامًا ثقيلًا على الروح. لم يكن العام قاسيًا بسبب العمل، بل بسبب ثقله على الروح؛ عام حمل العطاء حتى التعب، وجعل الإنجاز يجاور فقدان المعنى. عامٌ استمر فيه السعي، لكن بصحبة سؤال داخلي متكرر: إلى أين نمضي؟

في هذا العام، استقلت من عدد لا يستهان به من أهم اللجان الدولية والإقليمية والمحلية. لم يكن القرار سهلًا، ولم يكن لحظة غضب أو ردة فعل، بل نتيجة شعور متراكم بأن بعض المواقع لم تعد تضيف كما كانت، وأن البقاء فيها صار يستهلك أكثر مما يعطي. أحيانًا نغادر لأننا تعبنا، وأحيانًا لأننا لم نعد نصدق أنفسنا بما نفعله، وتارة أخرى لا نستوعب ونحن نجلس في المكان ذاته كالدمى المتحركة.

كان هذا العام مختلفًا أيضًا بانسحابي الداخلي. لم أعد منفتحًا كما كنت في السابق، ولم أعد أبحث عن الدوائر الواسعة أو النقاشات الطويلة. كنت أميل إلى الصمت، إلى العزلة النسبيّة، وإلى مراقبة الأشياء بدل الاشتباك معها. ربما كان ذلك ضعفًا، وربما كان محاولة غير واعية لحماية ما تبقى في داخلي.

كان عامًا مريرًا، مليئًا بتحديات شخصية ومهنية. بعضها واضح، وبعضها لا يمكن شرحه حتى لأقرب الناس. هناك أمور لا تُقال لأنها لا تُفهم، وخسارات لا تحتاج إلى تبرير لأنها ببساطة حدثت، وتركت أثرها.

وسط هذا الثقل، تنامت الكتابة لدي بشكل أفضل. لم تكن اكتشافًا لحظياً أو مخططًا له، بل جاءت كحاجة. شذرات وجدانية، وآراء، ومقالات، وخربشات في ظلال رحلتي في هذه الحياة... كانت الكتابة مساحة أعبر فيها عن ما لا أستطيع قوله بصوت واضح. وشكرا لكل من قرأ، أو شجّع، أو احتمل هذه الكتابات، وكل الامتنان والود الصادق لأن الكلمة لا تنمو في الفراغ.

من السهل أن نقول إن القادم أجمل، لكنني، للأسف، لا أراه كذلك. وربما المشكلة فيَّ، وربما في الواقع من حولنا. أصبحت أكثر خوفًا من التفاؤل، لا لأنني لا أريده، بل لأن ما نراه فينا وما يجري حولنا وفي الأوطان المختلفة، يجعل التفاؤل فعلًا هشًا ممزوجاً بالبراءة الزائفة. كيف نتفاءل ونحن نرى بلدًا يُدمَّر، وآخر يقسم، وثالثًا يُترك لمصيره وحيداً.

أعلم أنني «يجب» أن أتحدث عن الأمل، عن الحلول المقترحة، عن النور في آخر النفق. على الأقل هذا ما نتوقعه، لكنني اليوم لا أملك تلك اللغة. يداي لا تكتبانها بصدق، وعقلي لا يقنعني بها. ما أراه شعوبًا مبتلاة، لكنها أيضًا مستنزفة، ومنقسمة، ومتعبة من الوعود.

هـذه ليسـت دعـوة لليـأس، ولا بيانًـا سياسـيًا. إنهـا مجـرد كتابة إنسـان متعـب، يحـاول أن يكون صادقًا مع نفسـه ويؤمن أن الصدق، ولـو كان قاسـيًا، أقـل ضررًا من شـعور زائف.

فقـدان القـدرة عـلى التفـاؤل المطلـق... خطـوة أولى نحـو شيء آخـر، حتـى وإن لم نعـرف بعـد ما هو. ولكـن في نهاية الأمـر دعونا لا ننـسى «مـا اضيـق حيلتنـا وما أوسـع رحمـة الله».

★★★

# الحارة التي لا تخون الذاكرة:

حين تعود الخطى إلى الحارة الأولى... ما أجمل أن تعود بروحك إلى الحيّ الذي كبرت فيه، إلى الأزقة التي خبأت ضحكاتك الأولى، وخطواتك الصغيرة التي كانت تركض نحو الحياة بكل براءة ودهشة.

حضور مناسبات أبناء الحارة ليس مجرّد مشاركة اجتماعية، بل لحظة دافئة تنبع من القلب... فيها شوق عميق للقاء الأصدقاء والجيران القدامى، وحنين لزمنٍ كانت فيه البساطة عنوانًا، والمحبة تلقائية، والناس أقرب إلى بعضهم من ظلّهم. وفي كل مناسبة، لا يغيب عن القلب أولئك الطيبون... من بقي منهم، ومن رحل وترك أثرًا لا يُنسى. وجوه معطاءة، بهيّة الحضور، نقيّة النبض، لم تكن مجرّد أسماء، بل ذاكرة تمشي بيننا، تُلملم شتاتنا حين تفرّقنا الحياة، وتذكّرنا بأن الوفاء لا يموت.

الحارة، كما عرفناها، لم تكن تفرّق بين الناس بإسم أو منصب أو أصل أو دين. كانت بيتًا واحدًا كبيرًا... أبوابه مشرّعة، وقلوبه مفتوحة. كانت الأرض التي مشينا عليها بقلوبنا قبل أقدامنا، وكانت النخوة فيها أعلى من كل بناء، وأقرب من كل جدار.

في الآونة الأخيرة، بدأت أعود... أصعد دروب الحارة كما كنت أفعل طفلًا، أو في بدايات شبابي. شعرت أن ذاكرتي تمشي إلى جانبي، تهمس لي بكل زاوية، بكل حجر، بكل رائحة. كل جار، كل صديق، كل بيت... كان يُفتح لنا وكأننا من أهله، لا غرباء. وكل حكاية لا تزال تنتظر من يرويها بصوته القديم وابتسامته الأصيلة.

شكرًا لكل من يحافظ على هذا النبض الجميل، وشكرًا للحارة التي لا تخون الذاكرة، ولا تخذل أبناءها، مهما طال الغياب.

★★★

## العودة إلى البيت... حيث المعنى قبل الطعم:

العـودة إلى البيـت، والجلـوس إلى مائـدة الطعـام المنـزلي، تظـلّ أعمـق وأصـدق مـن أفخـم مطاعم العـالم، تلـك التي حفظـتُ قوائمها عـن ظهـر قلب دون أن أفهمهـا حقًا في كثير من الأحيان. وبرغم الأكل الخارجـي منـذ مـا يقـارب ربـع قرن مـن السـفر والترحـال وتجوالي في معظـم مطابـخ العـالم وتجاربهـا ونكهاتهـا، لم أعـد أشـعر بالطعم كما كان.

ربمـا لأننـي أحمـل اليـوم أسـنانًا شـبه صناعيـة، لكـن روحـي، عـلى عكـس ذلـك، ما زالـت طبيعيـة تمامًـا، حسّاسـة، ووفيـة للوطن، وللأهـل، وللذكـرى. وبرغـم تعـرّفي على مطابـخ العالم، لم أجـد هويتي الأزليـة فيهـا أبـدًا. ففـي سـفري أو حتى أفخـم مطاعم عـمّان، أصبح الطعـم بـلا روح، يحمـل نكهة مُختلَقة لا تشـبهني، ولا أشـبهها. هناك مـن يفتخـر بتسـمية الأطباق الأجنبيـة والإفرنجية، ويتبـارى في نطقها والتحـاذق بهـا، لكننـي لم أرَ فيهـا سـوى شيءٍ غريـبٍ عنـي، بـارد، لا يمـتّ لذاكـرتي بصلة.

وكـم تمنّيـت، ولا أزال، خـلال السـفر والأكل في المطاعم، أن أعود إلى وطنـي، وأن آكل شـيئًا بسـيطًا... ولـو حبـة زيتـون، أو مقدوسـة، أو طبخـة صاخبـة مثـل مقلوبـه بالباذنجان، أو قلاية لحمـة! بلا ادّعاء ولا زينـة مغـالى فيهـا. أو قلايـة بنـدورة، أو طبـق ملوخيـة، أو وجبـة

عشاء في موعدها قد تكون أصدق وأغنى من جميع مطاعم العالم مجتمعة. فالطعام ليس وجبة، بل هو هوية شخصية، ذاكرة تُؤكل، وانتماء يُعاد ترميمه مع كل لقمة.

لقد فقدت تلك الأشياء التي أحنّ إليها في كثير من الأحيان، فصار الأكل مجرّد عادة، بلا طعم، بلا شغف، بلا معنى. أما هناك... في البيت العتيق، في مربعي الأول، حيث الذكريات، وحيث الطفولة والشباب، كان و ما زال للطعام مذاق الحياة. في لقمةٍ بلا تكلّف، تشبه طفولتي، وشبابي، وفي طعام تعوّدنا عليه دون ادّعاء، أستعيد، قدر ما أستطيع جزءًا من هويتي، وجزءًا من نفسي، ومن كياني.

★★★

## المطر الذي لم يهطل:

اليـوم، وأنـا أخـرج من بـاب منـزلي الجانبـي، باغتني صـوت ماءٍ قـويّ، ذاك الصـوت الـذي لا يخطئـه القلـب حـين يبدأ الشـتاء بإعلان حضـوره. لوهلـةٍ ظننـت أن عاصفـة مفاجئـة قـد هبطت عـلى عمّان، وأننـي، كالعـادة، لم أتابـع نـشرة الجـو، ونسـيت معطفـي وكل مـا يحمينـي مـن لسـعة البرد.

تـردّدت... هـل أعـود قبـل أن أخـوض معركـة غـير متكافئـة مع المطـر؟ فالصـوت كان عاليًـا لدرجـة جعلتنـي أظنّ أنّ الشـارع يغرق! لكـن مـا إن تقدّمت خطوة واحـدة، حتى تكشّـفت الحقيقة: لا مطر، ولا عاصفـة... والجـو مشـمس، ربما ليـس دافئًا، لكنه بعيـد كل البعد عن قسـوة الشتاء.

كل الحكايـة أن مـزراب الجـار قـرّر كعادتـه أن يختـبر أعصـابي! تسريـب صاخـب يجعـل صوتـه يسـبق المطر نفسـه، حتى بدا الشـتاء الحقيقـي أكـثر هـدوءًا منه.

ابتسـمت، ومضيـت في طريقـي، وقلـت في نفـسي: مـا أجمـل أن يخدعنـا صـوت يشـبه المطـر، ولـو للحظـات... فقـط ليذكّرنـا بـأن الشـتاء قريـب، وبـأن كل عام يحمـل معه خيرًا جديـدًا. كل عام وأنتم ومـن تحبـون بخـير مـع قدوم الشـتاء، وإن شـاء اللـه تبقـى بيوتنا... ومزاريـب هـذا الوطـن في أحسـن حـال دائمًا.

## أجواء الشتاء بعد طول انقطاع:

الأجـواء الشـتوية لهـا مـا لها و ما عليهـا؛ بردٌ يلسـع الوجوه لكنه يسـكب السـكينة، وغيـومٌ مثقلـة لكنّهـا تحمـل بشـائر حياة. الشـتاء فصـلٌ واضـح وصريـح، لا يُخفـي شـيئًا ولا يُجامـل أحـدًا. وحين تهطل أول قطـرة، يمتـدّ ذلك الخيـط الخفي مباشرة إلى أيام الشـباب... تلك الأيـام التـي كان فيهـا المطـر دعـوة للركـض واللعـب لا للاختبـاء. كنـا نتجـوّل في الشـوارع بسـترٍ خفيفـة أو مرتدين فلـدات الجيش، لا شيء أكـثر. لم نكـن نشـعر بالـبرد، وكأن أجسـادنا يومهـا تتحدّى الشـتاء بلا خـوف، أو ربمـا لأن قلوبنـا كانـت أدفأ... وأشـجع... وأقـرب للحياة.

المطـر بجمالـه الطبيعـي... ذلـك الصـوت الخفيـف حـين تلامس القطـرات وجـه الأرض، يشـبه عـودة صديقٍ غـاب طويلًا. يغسـل من الـروح مـا أثقلتـه الأيـام، ويعيد للذاكـرة جـزءًا من رائحتهـا الأولى... رائحـة الأرض حـين تصحـو مـن نومها.

وتقفـز إلى ذاكـرتي صـورة لا تُنسى... أمـي، واقفـة عنـد بـاب غرفتـي، تنظـر إليّ بقلـقٍ دافئ وتقول: «اغلق الشـباك... والبس شـيئًا دافئًـا، وإيّـاك أن تمـرض!» وكنـتُ أرفـض هـذا المبـدأ تمامًـا... أبتسـم حينًـا، وأغضـب حينًـا آخـر، وأبقـى بلبسٍ خفيـف والشـباك مفتوحًا، كأننـي أثبـت لهـا، ولنفـسي، أن الشـتاء لا يقـدر عـليّ.

وتعـود في الذاكـرة أيضًـا طقوس الشـتاء بـكل تفاصيلهـا العائلية والاجتماعيـة؛ شـهيّة الأكل التـي تتضاعـف، ورائحـة الكسـتناء عـلى الصوبـة، وصـوت الفشـار، وتلك القائمـة التي تطول كلما اشـتد المطر.

لكـن السـنوات لا تمـرّ بـلا أثـر... ففي آخـر بضع سـنوات، بدأتُ أشـعر بالـبرد حقًـا. ليـس بـرد الهـواء وحـده، بـل بـرد العمـر... ذلـك الخريـف الصامـت الـذي كنـت أسـمع عنـه ولا أدركـه، حتـى صرنـا نتدفّـأ أكـثر مـما نركـض، ونتأمّـل بـدل أن نعانـد، ونغلـق الشـبابيك بإحـكام، ونتأكـد من سـماكة الحـرام... ونفهم أشـياء لم نكـن نفهمها في شـبابنا.

ومـع كل قطـرة مطـر، أعـرف أننـي لم أعُـد ذاك الفتـى الـذي لا يعـرف الـبرد... لكننـي أيضًـا لم أفقـد الدهشـة. فالمطـر حـين يعـود، يعـود معـه شيء مـن جـمال الحيـاة وهيبتهـا، وشيء مـن عبـق أمي، وشيء مـن روحـي القديمـة التـي مـا زالت تثـور كلما لامسـت الأرض أولى قطراتهـا.

★★★

# القسم الثاني

## مقالات منشورة

# تجليات إفريقيةً : يوميات نشمي من سهول القارة الإفريقية :

بعـد انتهـاء اجتماعـي في دولـة الإمـارات، اتجهـت مبـاشرة نحـو دولـة رواندا، الدولـة التـي دائمًا مـا تُحدثنا عـن الثورة التـي أحدثتها عـلى مسـتوى العـالم في معـدلات النمـو الاقتصـادي ومسـتويات الشـفافية والسـلم الأهـلي بعـد سـنوات طويلة مـن المعـارك والمجازر الجماعيـة. تجمـع قيادة شـابة حكيمة في هذه الدولـة الصغيرة، حيث تـم الاتفـاق عـلى نسـيان جميـع المجـازر وتجـاوز الصراعـات وإغلاق صفحـة المـاضي لبدء فصـل جديد. وبـدأت الرحلة الجديـدة، وتمكنت رواندا مـن التقـدم والازدهار.

ومـما تأكـد لي في سـفري هذا ووقـر في صدري، أن الأردن تسـافر معنـا، في قلوبنـا أينـما ارتحلنـا. عنـد الوصـول، كـم شـعرت بالفخـر عندمـا قدمـت جـواز سـفري الأردني وأعلمنـي ضابط الأمـن والحدود أن الأردنيـين لم يعـودوا بحاجـة إلى تأشـيرة. كانـت هـذه الكلـمات البسـيطة سـببًا في شـعوري بالفخر والاعتزاز، وفتحت نافذةً إلى قلبي بالاحـترام والمحبـة نحـو الأردن الحبيـب.

في اليـوم التـالي صباحًا، بدأنا الاجتماعات الرسـمية بحضور دولي، وتـم تكريـر الكلـمات «عـمان» و«الأردن» مـا يقـارب عـشر مرات في

اليوم الأول من هذا المحفل، حيث تمت الاشارة فيه عدة مرات إلى الاجتماع الدولي الذي عُقد في عمان تحت رعاية معالي وزير الصحة في نهاية العام الماضي، والذي تحدث عن المخاطر الامن الصحي والتهديدات وسبل التصدي لها. ذكر الأردن بهذه الطريقة جعلني أشعر بكل الفخر، حيث أصبح الأردن رمزًا في هذه المناسبات الدولية، دائمًا يُشار اليه في سياق الاستضافة والبدايات والانطلاقات، وهذه المرة من خلال منظور الصحة العامة، مما يعزز مكانته في الساحة الاقليمية والدولية. كان هذا مصدر فخر واعتزاز لي خلال أقل من يومين من وصولي إلى هذا البلد الطيب.

أثناء تناولنا الطعام ووسط الحديث الشيق، قررت تناول صحن من الفواكه بعد الوجبة اللذيذة التي لم تكن مألوفة لدي، ورأيت الفاكهة اللذيذة الاستوائية وغيرها بما فيها البطيخ وبناءً على طبيعتي وانتمائي الأردني، اخترت من ضمن ما اخترت بضعا من قطع البطيخ وبدأت في تناولها، ولأنني غير محايد قمت بمقارنته سريعا بالبطيخ الأردني، لكن لا شئ يضاهيه، حيث يتميز البطيخ الأردني بحلاوته ونكهته الرائعة التي تذكرنا بالأوقات الجميلة والسهرات العائلية الدافئة. شعرت مرة أخرى بحبي للأردن الغالي.

في نفس اليوم مساء، جلست مع زميلي السوداني الاصل الطيب الذي أحبه وأفتخر به، والذي يعيش في الأردن منذ سنوات. تبادلنا الحديث الجميل، حيث كان يخبرني أنه أصبح يعشق القهوة الأردنية أكثر من الأردنيين، على الرغم من أنه لم يكن كذلك في السابق. أخبرني أيضًا أن معدل تدخينه زاد إلى الكثير من السجائر

بعد أن كانت قليلة قبل قدومه إلى الأردن. يحب الأردن بشغف كما أحبه. نعم تغنينا بحب الأردن المعدي بتفاصيله الجميلة، فكيف لا يحبها الجميع وهي التي على مدار السنين تحتضن الجميع هي وشعبها المعطاء الكريم.

نعم، أحيانًا نجلد أنفسنا لأننا نرغب في ان نرى الأردن الحبيب في أحسن المراتب لأننا نعلم امكانياته ونعلم قدراته، ورغبة منا في خدمته بأحسن ما يمكننا، فترانا نركز على ما ينقصه، وهذا صحي في بناء الدول، ولكن يجب علينا ألا نغفل عن ذكر الجوانب الإيجابية الكثيرة التي يجب دائمًا التأكيد عليها والاعتزاز بها والتي نسبق بها الكثير من الأمم، وعلى رأس هذه الأمور حب العمل والاجتهاد والمصداقية فيه والابداع وحبنا وشغفنا للتطور والتعلم. علينا دوما أن نسعى على العمل للتحسين المستمر والتحلي بالصبر في مواجهة التحديات في المستقبل، بإذن الله.

فافتخر بوطنك الحبيب، فأنت نشمي من الأردن!

الرابط: جريدة الغد

★★★

# دوستويفسكي وتولستوي... النبعان المختلفان للروح الإنسانية:

في قلب الأدب الروسي، يقف اسمان عظيمان كجبلين شامخين: فيودور دوستويفسكي وليو تولستوي. كلاهما سكن ضمير

الإنسانية، وكتب عن الإنسان كما لم يكتبه أحد من قبل، لكن كلاً منهما فعلها بطريقته، من منبعٍ مختلف، وبرؤيةٍ نقيضة، جعلت من التقاء اسميهما على صفحة واحدة تجربة فكرية لا تشبه سواها.

دوستويفسكي خرج من رحم الألم، لا من نعيم الطبقة. وُلد في موسكو لعائلة متواضعة، تشرّب الفقر مبكرًا، وعاش التوترات الطبقية من الداخل، لا من فوقها. كان شابًا متمرّدًا، اعتُقل، وحُكم عليه بالإعدام، ثم أُنقذ في اللحظة الأخيرة، فنُفي إلى معسكرات سيبيريا. تلك اللحظة الفاصلة - بين الحياة والموت - رسمت ملامح كل ما كتبه لاحقًا. كتب دوستويفسكي عن الإنسان وهو في أعنف لحظاته: معذَّب، مشكِّك، ممزَّق بين الإيمان والشك، بين الجريمة والكفّارة، بين صوت الضمير وهمس الهوس.

أما تولستوي، فقد وُلد في نعيم الأرستقراطية، في ضيعة فخمة وحقول وارفة، وكانت حياته الأولى أقرب إلى سيرة أمير رومانسي.

لكنه رغم ذلك، لم يركن للترف، بل ظلّ يبحث - بقلقٍ عميق - عن معنى الحياة والعدل والحقيقة. كتب الحرب والسلام وآنا كارينينا وهو في قلب مجده، لكنه انسحب لاحقًا إلى حياة الزهد والبساطة، باحثًا عن الله في الحقول لا في الكتب، وعن الخلاص في العمل واللاعنف لا في الفكر التجريدي.

إذا كانت أعمال دوستويفسكي تنزل إلى قاع النفس البشرية، فإن روايات تولستوي تمتد على مساحة الوجود الاجتماعي والأخلاقي. دوستويفسكي يحبس القارئ في غرفة مع مجرم أو مريض نفسي أو ناسك مشوش، ويجعله يتأمل داخله. أما تولستوي فيُمسك القارئ من يده ويمشي به في الحقول، في المعارك، في العائلات، بين الحب والخيانة، بين القانون والطبيعة، ويطلب منه أن يرى الإنسان في تفاعله مع الآخرين، لا في عزلته فقط.

في الأخوة كارامازوف، تجد دوستويفسكي يفتح جراح الفلسفة الكبرى: هل يمكن أن يُبرر الشر؟ هل الأخلاق ممكنة بلا إيمان؟ هل الله غائب أم نحن الذين هربنا منه؟

بينما في الحرب والسلام، يغوص تولستوي في جدلية التاريخ والاختيار البشري، وكيف يُعيد الناس صناعة مصيرهم تحت سطوة الحرب والقدر.

أدب دوستويفسكي أشبه بلوحة ليلية، مضاءة بشموع الشك والأسئلة، فيها ظلال، وارتباك، ونبض داخلي لا يهدأ.

أما أدب تولستوي فهو أقرب لنهارٍ ممتد، فيه الضوء موزّع

على تفاصيل الحياة، على البشر بأخطائهم البسيطة، وأحلامهم الممكنة، ومعاركهم اليومية.

كلاهما كتب عن الإنسان، لكن بأداتين مختلفتين: دوستويفسكي بالمِبضع، وتولستوي بالفرشاة.

الأول كان يشرّح الروح، والثاني كان يرسمها وهي تتحرك في الزمن.

الغريب أن الرجلين لم يلتقيا أبدًا، رغم أنهما عاشا في زمن واحد. لم يتحادثا، لم يتحاورا، لكنهما كانا في مواجهة غير مباشرة، فكريًا وأدبيًا. كل منهما كان صوتًا مختلفًا لروسيا، بل للإنسانية كلها .

وإذا كان الرجلان لم يلتقيا في حياتهما، فقد التقيا في ضمير الأدب العالمي. فقد رأى فرويد في دوستويفسكي تجسيدًا مذهلًا لصراعات النفس البشرية، واعتبر الأخوة كارامازوف قمة في التعبير عن التوتر بين الرغبة والذنب. وكتب سارتر أن دوستويفسكي «سبق الوجودية قبل أن تُولد»، لما في أدبه من قلق وجودي وتمزق أخلاقي. أما همنغواي، فقد قال عن تولستوي إنه «كتب بنُبل لا تحتمله الحقيقة أحيانًا»، منبهرًا بقدرته على جعل العادي بطوليًا. ووقف كثير من فلاسفة وأدباء الغرب في رهبة أمام قدرة الكاتبين على الجمع بين العمق النفسي والتأمل الفلسفي والسرد الأخلاقي. لقد مثّل كلاهما في نظر الأدب العالمي مرآة لإنسان يتصارع مع ذاته والوجود، وفتحا نوافذ لا تُغلق لفهم الإنسان لا بوصفه مخلوقًا

روائيًا، بـل ككائـن يبحـث عـن المعنى وسـط ظـلال العالم.

واليـوم، بعـد أكثر من قـرن، لا يزال صدى كلٍ منهما حاضرًا. فحين نبحث عن الإنسان في أضعف حالاته، نذهب إلى دوستويفسكي.

وحـين نبحـث عنـه في علاقاتـه ومسـؤوليته عـن العـالم، نلجـأ إلى تولستوي.

وبينهـما، نجـد أنفسـنا... ممزقـين بـين العمـق والامتـداد، بـين العزلـة والمجتمـع، بـين الصرخـة الوجوديـة والرسـالة الأخلاقيـة.

دوستويفسـكي وتولسـتوي ليسـا مجـرد كاتبـين، بـل ثنائيـة نادرة للعبقرية.

مـن تأمّلهـما معًا، نخرج بصورة أشـمل للإنسـان: مَـن هو؟ ولماذا يتـألم؟ وكيـف يُمكن له أن يعيـش... رغم كل شيء

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

.

# باكستان... القوة الهادئة التي تنبض بالحياة والتجدد:

كتبت كثيراً عن أوطان وقضايا، لكنني لم أكتب من قبل عن باكستان، رغم عمق علاقتي بهذا البلد الجميل، ومكانته الراسخة في مسيرتي المهنية والإنسانية. بلدٌ كثيراً ما أسيء فهمه أو استُهين بإمكاناته، بينما هو في الحقيقة ينهض بصمت، ويُنجز بثبات، ويتقدّم خارج عدسات الضجيج.

دفعني إلى هذه الكلمات ما قرأته عن صائمة سليم قبل بضع شهور، الدبلوماسية الكفيفة التي تمثل باكستان في الأمم المتحدة، والتي تحولت إلى رمز للتمكين والجدارة. هي ليست استثناءً، بل انعكاس لمجتمع يكافح ويصنع الفارق رغم التحديات. و من ثم الرد العسكري الرادع على الهند، و اخيرا معاهده الدفاع المشترك مع دولة السعودية.

بدأت علاقتي مع باكستان عام ٢٠٠٢، وزرت مدنها من الجنوب إلى الشمال: إسلام آباد العاصمة الأنيقة، كراتشي الاقتصادية الصاخبة، لاهور الثقافية، وميربور خاص وتاباركار حيث كرم الضيافة والتنوع. في كل محطة لمست شعبًا نقيًا وصبورًا، يقترب تعداده من ٢٤٠ مليون نسمة ويُعد من أكبر المجتمعات المسلمة في العالم.

المـرأة في باكسـتان فاعلـة وليسـت متفرجـة. فقـد نفـذت آلاف العامـلات في برنامـج الصحـة الريفيـة مهـام بطوليـة للوصـول إلى القـرى النائيـة، ووفـرت الرعايـة والتطعيـم، مما شـكل نموذجًـا عالميًا في الصحـة المجتمعيـة. وعـلى المسـتوى السـياسي، وقفت باكسـتان في طليعـة العـالم الإسـلامي حـين انتخبـت بناظير بوتـو عـام ١٩٨٨ كأول امـرأة تتـولى رئاسـة الـوزراء في دولـة مسـلمة، في سـابقة تاريخيـة سـبقت دولًا أكـثر تقدمًـا في ديمقراطيتهـا.

الثقافـة الباكسـتانية مزيـج غنـي مـن الفارسـية والهنديـة والإسـلامية. تـرك محمـد إقبال إرثًا شـعريًا وفلسـفيًا عميقًـا، وأنجبت باكسـتان عبـد السـلام، الحائـز عـلى نوبـل في الفيزيـاء، وعبـد القديـر خـان، الأب الروحـي للمـشروع النـووي. الأخـير قـاد برنامجًـا تاريخيًا جعـل باكسـتان عـام ١٩٩٨ أول دولة إسـلامية تنضم للنـادي النووي.

كـما أن باكسـتان دولـة عسـكرية بامتيـاز؛ فجهـاز اسـتخباراتها يُصنَّـف ضمـن الأقـوى عالميًـا، وجيشـها معـروف بانضباطـه، وسـلاح طيرانهـا بـين الأبـرز كفـاءة في المنطقـة. وبرغـم هـذه القـوة الصلبـة، لم تغفـل عـن مسـار التنميـة. ورغـم شـح المـوارد وضغـط الكثافـة السـكانية الهائلـة، تدفـع باكسـتان بثبـات نحـو التعليـم، الصحـة، والخدمـات المجتمعيـة، لتؤكـد أن الأمن والتنمية جناحـان متكاملان.

إقليميًـا، لم تنـل باكسـتان دائمًـا مـا تسـتحقه مـن الاعـتراف. فقد قدمـت مسـاعدات إنسـانية وتقنية في الكـوارث والأوبئة، واسـتقبلت ملايـين اللاجئـين الأفغـان لعقـود. وترتبـط بعلاقـات تعـاون عسـكرية

وتدريبية مع دول إسلامية عديدة، من بينها الأردن، خصوصًا في مجال السلاح الجوي. وعلى الصعيد الأخلاقي، ظلت مواقفها تجاه القضية الفلسطينية ثابتة ومبدئية، تُترجم بمنح دراسية ودعم ملموس للطلبة الفلسطينيين.

أما الضيافة الباكستانية فهي شعر يُترجم في الشاي، في البرياني، في الكرم الذي لا يعرف الاكتفاء. لطالما ترددت في ذهني العبارة الشعبية: "كُل قليلاً بعد"، كناية عن محبة لا تعرف حدودًا.

باكستان ليست دولة تُجيد الترويج لنفسها، لكنها تترك أثرها في هدوء. أنا فخور بأصدقائي وزملائي الباكستانيين، وبما يمثلونه من قيم في عالم يضج بالصخب والادّعاء. فلننظر إلى باكستان لا بما مرّت به من صراعات، بل بما تمتلكه من طاقات وما تحققه من تحولات.

أنا أحب باكستان. أؤمن بشعبها. وأثق أن القادم يحمل لها الأفضل..

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

# المرأة العربية بين النهوض الحقيقي... والانزلاق في التقليد الأعمى:

لم تكن المرأة العربية يومًا على هامش التاريخ، بل كانت دومًا حاضرة في النسيج الحضاري للأمة، أمًّا ومعلمة، شاعرة ومجاهدة، عالمة ومُربّية. واليوم، ونحن نعيش موجة التغيرات الكبرى في القرن الحادي والعشرين، تبرز قضية تمكين المرأة كمفتاح ضروري للتقدّم، لكن بين الدعوات الحقيقية لنهضتها، وبين المبالغات المستوردة من الخارج، يقف الواقع حائرًا.

في العقود الأخيرة، حققت المرأة العربية إنجازات غير مسبوقة. فهناك نساء في سدة القضاء، وفي وزارات سيادية، وفي مختبرات البحث والابتكار. لم تعد صورة «المرأة التابعة» تمثّل إلا جزءًا ضئيلاً من المشهد. المرأة اليوم تُعلّم وتُدرّب وتبني، وتقود المبادرات والمشاريع وتخوض غمار الحياة العامة بثقة واقتدار. وهذه مكاسب لا يملك منصف إلا أن يعتز بها.

لكن في المقابل، ظهرت موجة من التغيير الاستهلاكي، لا تمتّ إلى التمكين الحقيقي بصلة. تقليدٌ أعمى لرموز غربية لا تنتمي إلى بيئتنا، ولا تعكس أولويات المرأة العربية ولا نضالها. شعارات تُرفع بلا مضمون، وسباق محموم نحو «الصورة» بدل «البنية»، وكأن التقدم يُقاس بطول الأظافر أو نوع الحقيبة أو نبرة التمرد...

لا بجودة التعليم، واستقلال التفكير، ومكانة العقل والقيمة في المجتمع.

في بعض البيئات، تحوّلت حرية المرأة إلى ذريعة للتفلت من المسؤولية، لا لتوسيع دائرة الكرامة. وفي أخرى، صار الانشغال بالمظهر مقدّمًا على بناء الذات. وفي حالات كثيرة، أصبح تقليد الغرب ليس تبنّيًا لنماذج ناجحة، بل استيرادًا لأعطاله وسلوكياته السطحية، لا إنجازاته البنّاءة.

بل المؤلم أن هذا التقليد لا يقتصر على المظهر الخارجي فقط، بل يمتد إلى نماذج العلاقات الأسرية، وأنماط التفكير، وحتى طريقة التعبير عن الذات. نرى شابات يفتخرن بتقليد نجوم الغرب في حركاتهن وكلماتهن، في حين يغيب النموذج العربي الحضاري، أو يتم تسخيفه باسم "الحداثة".

وفي الجانب الآخر من الصورة، لا يزال بعض المجتمعات العربية يعاني من إرث طويل من الإهمال والامتهان للمرأة، لا سيما في البيئات الهشة والفقيرة. هناك من تُقصى من التعليم، ومن تُزوّج قسرًا، ومن تُمنع من التعبير أو حتى الحلم. فتعيش المرأة في فجوة كبيرة: بين مبالغات التمكين السطحي، وإهمال الحقوق الأساسية.

إن التحدي اليوم لا يكمن فقط في الدفاع عن المرأة، بل في صياغة مشروع نهوض متّزن، يعيد للمرأة مكانتها الحقيقية دون استلاب ولا انبهار أعمى. نحتاج إلى نموذج عربي خاص بنا، يستلهم

من القيم، ويواكب العصر، دون أن يُذيب هويتنا في قوالب مستوردة لا تشبهنا.

نريد امرأة حرّة لا منفلتة، طموحة لا متمردة بلا وعي، صلبة في القيم، مرنة في الفكر، منتمية لمجتمعها، شريكة في تطويره، لا مجرد تابع لثقافة عابرة أو صورة مصنوعة في فضاء التواصل.

فالمرأة العربية حين تُمنح الفُرصة الحقيقية، لا الحاجة إلى الاستيراد، ولا الانبهار بالخارج، تكتب فصلاً جديدًا في نهضة الأمة... بثقة، وبصيرة، وتوازنٍ جميل بين الأصالة والتجديد.

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

## اليمن... بلد العراقة الذي لم تنحني جباله:

ليست اليمن اسمًا عابرًا على الخريطة، بل تاريخٌ يتنفس من أعماق الجبال والسهول، وهويةٌ متجذرة ترفض الذوبان في صخب الزمن. إنها أرض لا تُقاس بالمساحة، بل بالأثر، ولا تُختزل في حدود، بل تمتد في ذاكرة الشعوب. هي مهد العروبة، ومنبت اللغة، ومختبر الحكمة، حيث وُلدت الحكايات قبل أن تُروى، ونُسجت الأساطير من خيوط الواقع.

من مملكة سبأ وسد مأرب العظيم، إلى أوسان وحِمير وقتبان، كانت اليمن في طليعة الحضارة الإنسانية. أنشأت أنظمة سياسية متقدمة، خطّت أولى أبجديات التجارة الدولية، وساهمت في وصل الشرق بالغرب على طرق البخور والتوابل والعطر.

لم تكن اليمن يومًا هامشًا، بل مركزًا اقتصاديًا وفكريًا، ومحجًّا للقوافل، ومنبرًا للعلم والمعرفة، قبل أن تشهدها العواصم الكبرى.

شعبها انفتح باكرًا على الأديان، فآمن باليهودية والمسيحية، ثم دخل الإسلام طوعًا، لا بالسيف، بل بالاقتناع. أرسل إليهم النبي ﷺ خيرة أصحابه، ومنهم معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري، فوجدوا قلوبًا مفتوحة وعقولًا مستنيرة. ومنذ ذلك الزمن، صار اليمن رافدًا للدعوة، لا مجرد متلقٍّ لها.

وإذا كانت الجغرافيا قد منحت اليمن تنوّعًا مذهلًا بين السواحل والجبال والوديان، فإن التركيبة القبلية كانت قلب هذا التوازن.

برزت في التاريخ القديم قبائل عظيمة كهمدان، حِمير، حاشد، بكيل، وسبأ، فساهمت لا في حماية الأرض فقط، بل في صياغة الهوية العربية. كثير من أنساب العرب اليوم تعود بجذورها إلى هذه القبائل التي انتشرت مع الفتح الإسلامي حتى بلغت الحجاز والعراق والشام والمغرب العربي، وكان لها الدور في نشر اللغة والدين، وتأسيس العمارة، والفقه والسياسة.

واليمن، رغم تقلبات التاريخ، لم تُطأ جباله دون مقاومة. من الفرس والأحباش إلى البرتغاليين والعثمانيين، كانت أرضه دومًا مقبرة للغزاة، لا تستكين، ولا تفرّط. اليمني قد يُجاع، لكنه لا يُذل؛ يُرهق، لكنه لا يبيع أرضه؛ يُحاصر، لكنه لا يتنازل عن كرامته.

وفي قلب هذا المشهد، تتجلى المرأة اليمنية كقوة فاعلة، من الملكة بلقيس، رمز الحكمة السياسية والدبلوماسية في سبأ، إلى أروى بنت أحمد الصليحي، أول امرأة حكمت باسم الخلافة الفاطمية في القرن الحادي عشر، أثبتت اليمنية أنها لا تعيش في الظل، بل تصنع التاريخ وتدافع عن الحق بالكلمة والموقف.

أما المدن اليمنية، فلكل منها نكهتها: صنعاء القديمة بمآذنها وأسواقها وقبابها الطينية؛ عدن بمينائها التاريخي وانفتاحها التجاري؛ حضرموت بسكينتها الروحية وتراثها العلمي؛ مدينة إب،

قلب اليمن الأخضر، واحةٌ من الجمال والتاريخ. بيوت بيضاء تحيط بها الخضرة. وُصفت بأنها قبضة لؤلؤ نُقِرت فوق بساطٍ أخضر، وعُرفت بعراقتها واعتدال مناخها. تعز بعراقتها الثقافية ومقاومتها الصلبة؛ وصعدة بجبالها الشامخة، حيث القبيلة تعقد الصلح قبل أن تُشهر البندقية.

تراث اليمن لا يقتصر على الآثار أو الفنون، بل ينبض في تفاصيل الحياة اليومية: في صوت أيوب طارش، وفي رائحة البنّ، في زخارف الأبواب الخشبية، في أعراس تمتد أيّامًا، في القصيدة التي تُلقى قبل السيف، وفي السوق الذي يجمع بين التجارة والحكاية.

وفي لحظة تبدو فيها العواصم متشابهة، تقف اليمن كأرضٍ لا تُشبه سواها، تُقاوم لا لتنتصر على عدو، بل لتحمي ما بقي من ذاتها. اليمن ليست فقط ماضيًا نستدعيه، بل مستقبلًا يستحق أن نعيد قراءته من جذوره.

بلدٌ حين تقترب منه أكثر، تتيقّن أن العراقة لا تعني فقط ما مضى... بل ما صمد.

**الرابط: صحيفة عمون**

★★★

## اليمن.. الجمال الموجوع ووجدان العرب:

من لم يزر اليمن، لم يعرف جمال العالم في أصفى صوره.

لقد زرت هذا البلد العظيم مراتٍ عديدة، ورغم أن زياراتي كانت قصيرة، إلا أنني رأيت فيه ما لم أره في أي مكان آخر. في اليمن، لا تجد الجمال فحسب، بل تجد الروح الحية التي تبني وتكافح وتشق طريقها في الصخر. مزيج من الطيبة والنبل، يتماهى مع جباله الشامخة حتى يصيران واحدًا. بين تضاريسه، تجد العزيمة التي لا تلين، والكرم الذي لا ينضب، والإباء الذي لا يلين.

كان اليمن، ولا يزال، أرضًا ملهمة، مليئة بالجمال البسيط والمشاعر العميقة.

فوجئت بقوة المرأة اليمنية، التي كانت تحتل مكانًا مميزا في المجتمع اليمني فالمرأة شريكة الرجل في المدرجات والحقول منذ قديم الأزل وفي قلب المنظومة الصحية. كانت النساء هناك يديرن المراكز الصحية، بمهارة تفوق التصور. والعمود الفقري مع الإشراك المجتمعي الذي يتحدث عنه العالم الآن بينما طبقه اليمن منذ عقود من الزمن. إصرارهن لا يقل على اصرار الرجال على النجاح لا يختلف عن إصرار الجبال التي احتضنت وطنهن. كنّ حريصات، بل شامخات، وكل واحدة منهن تحمل في قلبها رسالة الأمل والصحة.

في اليمن، رغم كل الجراح، يبقى الأمل مشرقًا.

ذلك البلد الذي بدأ نضاله السياسي مبكرًا، مقاوما للاستعمار الأجنبي في زمن كانت فيه أمة العرب ترزح تحت نير الاستبداد، وتبني زيف الحداثة. اليمن عُرف بمواقفه الشجاعة في الزمن الصعب، وكان البلد الذي يرفع رأسه عاليًا في وجه كل ريح عاتية، بل كان دائمًا يثبت في أرضه كالجبل الراسخ.

لا أنسى أول رحلة لي إلى صنعاء، ولا صوت الطبل الجبّاري الذي يعزف على وقع أقدام التاريخ. صنعاء، تلك المدينة التي يسكنها الهدوء والأنين في آن واحد، سوقها العتيق حيث تختلط رائحة البن اليمني بالذكريات، وتنطق الحجارة بقصص الآباء والأجداد.

ومن صنعاء إلى الحديدة، كانت الرحلة الأكثر إثارة.

رأيت البساطة في أبهى صورها، والناس هناك لم يعرفوا الكسل ولا الاستسلام. كان الأمل يلوح في عيونهم، رغم قسوة الحياة، كان الجميع مستعدًا للصمود حتى وإن كانت الطرق شديدة الوعورة. في هذه المدينة الحزينة، كان ثبات الشعب أكبر من أي مصاعب يمكن أن تعترض طريقهم.

ووسط هذا الألم، لم يكن اليمن مجرد بلد ضعيف تحت وطأة الحرب، بل كان صوتًا مدويًا للحرية.

رأيت الاعتصامات تسير بهدوء، والنساء يخرجن كالرجال في المظاهرات. شعب يرفض الخضوع لأي قيد، ويحمل في قلبه حبًا لا يموت.

كانت الرحلة من صنعاء إلى الحديدة بمثابة درسٍ في الصبر. جبالٌ شاهقة، طرقٌ لا تَعرفها الخرائط، ومع ذلك لا يوقفهم شيء.

حملات التطعيم كانت تصل إلى أكثر الأماكن صعوبة، حيث لا سيارات ولا طرق ممهدة، بل فقط سواعد ملؤها الإرادة التي لا تعرف المستحيل.

اليمن، رغم الجراح التي مرت به، ما زال ينبض بالحب والفخر.

أشتاق إليك، يا يمن، إلى الجلسات التي تملأ الأجواء بعبق الذاكرة، إلى الساعات الطويلة التي قضيناها معًا في مجالس تتناثر فيها الأحاديث كأنها نغمات موسيقية. إلى العسل الذي يفوح بعبق الأرض، إلى تلك الوجوه التي تعكس نقاء الروح وتسامحها.

اليمن ليس مجرد وطن، بل هو جزء من كياني، هو الحلم الذي لا يفارقني، والأمل الذي يبقى في قلب كل عربي. لا أستطيع أن أقرأ عن العرب أو أذكر حضارتهم دون أن يمر أمامي طيف اليمن في كل سطر، وفي كل كلمة، وفي كل فكرة.

اليمن...

إنه الجمال الذي لا يموت، والأرض التي لا تساوم، وفي مكان آخر لكان حتمًا جنة عدن.

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

## اللغة العربية... موسيقى الروح ولسان الهوية:

في إحدى محطات السفر الطويل، التقيت رجلاً من أوروبا الشرقية أدهشه أني عربي، فسألني، بفضول نقي: «لماذا لا تتحدثون دائمًا بلغتك العربية؟ إنها من أجمل اللغات التي سمعتها!» سؤاله المباشر، رغم بساطته، كان كالمرآة التي تعكس زوايا كنا نمرّ بها كل يوم دون أن نتوقف عندها.

اللغة العربية ليست مجرد أداة تواصل، بل كائن حي ينبض بتاريخ شعوب، وأحلام أجيال، وروح حضارة امتدت من جبال الأندلس حتى ضفاف نهر السند. إنها لغة فيها من الإعجاز ما يدهش، ومن الموسيقى ما يُطرب، ومن الحِكمة ما يروي ظمأ الفكر.

فيها تتجاور الدقة مع الجمال، وتنساب الكلمات كما الماء العذب. من يقرأ بيتًا للمتنبي أو مقطعًا للجاحظ أو دعاءً من أدعية الصالحين، يدرك أن العربية ليست مجرد لغة، بل مقام روحي.

ومن أبرز ما منح العربية بُعدها القدسي وعمقها البلاغي، هو نزول القرآن الكريم بها، إذ لم يكن مجرد وحيٍ ديني، بل معجزة لغوية خالدة. جاءت مفرداته لتُحكم البناء وتسمو بالمعاني وتضرب الأمثال، فأثّرت في بنية اللغة وأساليبها ونقلتها من أداة

تواصـل إلى أداة إبـداع وإقنـاع وتنويـر. كلمـة واحـدة في القـرآن قـد تحمـل طبقـات من المعنى، وتُقـرأ بأوجه شـتى، دون أن تُخلّ بجوهر الرسـالة، بـل تزيدهـا سـحرًا وثـراءً. مـن هنـا، أصبحـت العربيـة لغـة تُتعـب مـن أراد تقليدهـا، وتُبهـر مـن حـاول الغـوص في أعماقهـا.

وقـد لا يعلـم كثـيرون أن العربيـة تُعد من أكثر لغـات العالم ثراءً مـن حيـث عدد المفـردات؛ إذ تتجاوز مفرداتها وفـق بعض التقديرات الاثنـي عـشر مليـون كلمة، بـين أصل واشـتقاق وترادف وتنـوع دلالي، في مقابـل بضـع مئـات الآلاف في معظـم اللغات الأخـرى. وليس الأمر في الكـثرة فقـط، بـل في دقـة التصنيـف. ففـي العربية، هنـاك عشرات المفـردات لـكل حالـة مـن حـالات المطـر، ولـكل تفصيلـة من مشـاعر الحـب، ولـكل وصـف للطبيعـة أو الهيئـة أو الحركـة. فالأسـد ليـس مجـرد «أسـد»، بـل لـه أكـثر مـن ٣٠٠ اسـم بحسـب حالتـه وسـياقه، والغـمّازة، والابتسـامة، والضحكـة، لـكل منهـا توصيفها الخـاص. حتى الجَـمال، لا يُوصـف بكلمـة واحدة، بـل بكنزٍ من الألفـاظ التي توحي ببهـاء الشـكل ورقـة الـروح في آنٍ معًا.

في أسـفاري الكثـيرة، كلما تحدثـت بالعربية، شـعرت بوقار خاص يسـبقني، كأن هـذه اللغـة تحمـل عـلى ظهرهـا عبـق التاريـخ. بعض الأصدقـاء مـن ثقافـات أخـرى، لا يفهمـون حرفًـا مـما أقـول، لكنهـم يقولـون إن العربيـة تُسـمع وكأنها لحـنٌ مكتمل، حتى قبـل أن تُفهَم.

ولعـل في أحـد المقاهي القديمة في المغرب، رأيت شـبّانًا يتجادلون بالفصحـى وكأنهـم في مناظـرة أدبيـة. لا مذيع ولا جمهـور، لكن اللغة

بينهم كانت عنوانًا للفخر، ومتنفسًا للهوية. حينها، أدركت أن الفصحى ليست لغة الماضي، بل كنز الحاضر إن أردنا أن نُحسن حفظه .

لكن ما يحزن حقًا أن كثيرين من أبنائها لا يثقون بها. يتحدثون بها في الصفوف الدراسية ثم يهجرونها في الشوارع. يعتذرون عنها أمام الأجانب، كأنها عبء لا يُحتمل. ينسون أن هذه اللغة، يوم كانت بعض اللغات الأوروبية تُكتب بحروف متقطعة، كانت تؤسس لمفاهيم الطب والجبر والفلك والفلسفة.

هي التي علّمت العالم مفاهيم الترجمة، وصاغت أولى معاجم المعاني، واحتضنت مئات المفردات التي لا ترجمة دقيقة لها في لغات أخرى. في العربية، لا يوجد فقط الحب، بل الهوى والعشق والوجد والحنين والوله والصبابة. في العربية، الشمس مؤنثة، والقمر مذكّر، وكأنها تعيد ترتيب الكون بنسقٍ خاص بها.

وكم هو مؤلم أن نُحدّث أبناءنا عن الفخر بلغتهم، ثم نختار لهم أسماءً أجنبية في لحظة ميلادهم، وندرسهم الرياضيات والعلوم بلغة غير لغتهم، ثم نتساءل لاحقًا: لماذا لا يعتزون بها؟

اللغة ليست مجرد حروف. إنها الذاكرة، والحنين، والشعور الجمعي. من يفقد لغته، يفقد ملامحه تدريجيًا دون أن يشعر. ولغتنا العربية، بثرائها وتنوّعها، لا تحتاج إلا لمن يعيد اكتشافها. هي لا تشكو الضيق، بل نحن من ضاقت قلوبنا عن اتساعها.

قد يقول البعض إن اللغة لا تُطعم خبزًا. لكن الحقيقة أن

الأمـم لا تنهـض إلا بلغاتهـا. اليابـان، كوريـا، تركيـا، بـل حتـى دول صغـيرة حافظـت على لغتها، فحافظـت على مكانتها. أمـا نحن، فلدينا لغـة عظيمـة، لكنهـا تنتظـر منـا أن نعاملهـا كـما تسـتحق.

ربمـا آن الأوان لنفهـم أن اللغـة العربيـة ليسـت لغـة متحـف، بـل شـجرة أصلهـا ثابـت وفرعهـا في كل فـنّ وفكـر وإبـداع. نحتاج أن نعيدهـا إلى يومياتنا، إلى قصص أطفالنا، إلى شاشـاتنا وكتبنا ورسـائلنا. نحتـاج أن نُحسـن النطـق بهـا، وأن نفخـر باسـتخدامها، لا أن نُـبرر التحـدث بغيرها.

فاللغـة، تمامًـا كالهـواء، لا نشـعر بقيمتهـا حتى نختنـق بفقدانها. والعربيـة، لغتنـا الأُم، لا تـزال تنتظـر أن نغنـي لهـا كما غنّـى لها نزار، وأن نخـط بهـا كـما كتب بها جـبران، وأن نحبها كما أحبها طه حسـين.

ومن لا يحب لغته، كيف له أن يحب نفسه؟

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

## التنوع مصدر قوة: روسيا الاتحادية مثالًا حيًّا:

في عالم تتنازع فيه الدول بسبب التعدد العرقي والديني، تبرز روسيا الاتحادية كحالة فريدة تُظهر كيف يمكن للتنوع أن يكون مصدرًا للقوة لا سببًا للتفكك. تمتد روسيا من أقصى شرق آسيا إلى حدود أوروبا، وتضم أكثر من ١٩٠ قومية وعشرات الديانات واللغات، ومع ذلك حافظت على كيان سياسي موحد. السر في ذلك يتجذر في التاريخ ويستمر في الحاضر.

منذ عهد القياصرة، تبنّت روسيا نهج الاحتواء بدل الإقصاء. لم تُلغَ الهويات المحلية بل تم دمجها تدريجيًا في نسيج الدولة. وفي الحقبة السوفييتية، تم اعتماد نموذج يعترف رسميًا بالجمهوريات القومية ضمن دولة موحدة، فالاتحاد لم يكن للتنميط، بل للتعايش المنسجم تحت قيادة مركزية.

ولعلّ الأسماء القيادية خير دليل على نجاح هذا النهج. ستالين كان جورجيًا، وخروتشوف أوكرانيًا، وفي روسيا الحديثة، يشغل سيرغي لافروف منصب وزير الخارجية رغم أصوله الأرمنية. رجل الأعمال اليهودي رومان أبراموفيتش، تولّى منصب حاكم إقليم ناءٍ، بينما عُرف السياسي جيرينوفسكي بأصوله المختلطة الكازاخية واليهودية. هذه الأسماء تعبّر عن سياسة دمج لا تفرّق، تقوم على أساس الولاء للدولة.

ويتجـاوز هـذا النهـج المجال السـياسي ليشـمل الثقافـة والفنون. فـأنّا أخماتوفـا الشـاعرة الشـهيرة كانت مـن أصول تتاريـة، وجوزيف برودسـكي، الحائـز على نوبل، مـن عائلة يهودية. أما شوسـتاكوفيتش، فقـد مـزج في موسـيقاه بـين الأرثوذكسـية واليهوديـة والتقاليـد السـلافية. كـما تحتفـي المتاحـف الروسـية بأعـمال فنانـين مـن أصول داغسـتانية وأرمنيـة وقرميـة، مـا يعكـس ثـراءً حضاريًـا جامعًا.

هـذا التنـوع مـا كان ليزدهـر لـولا النظـام الفيـدرالي المـرن الذي اعتمدتـه روسـيا. يمنـح هذا النظـام الكيانـات الفيدرالية حريـة إدارة شـؤونها الثقافيـة والتعليمية والدينية ضمن إطـار الولاء للدولة. ففي تتارسـتان تُـدرّس التتريـة إلى جانب الروسـية، وفي ياقوتيـا تُنتج برامج بلغـة ياقوتيـة وتُـدرّس في المـدارس، بينـما يُمـارس السـكان شـعائرهم بحرية.

في العمـق الروحـي، تقـوم روسـيا عـلى قاعـدة الأرثوذكسـية المسـيحية، لكنهـا في الوقـت نفسـه احتضنت الإسـلام باعتـزاز. يعيش أكـثر مـن ٢٠ مليـون مسـلم في روسـيا، ولهـم مسـاجدهم ومفتيهـم وتعليمهـم. يكفـي أن ثـاني أكـبر مسـجد في أوروبـا يقـع في قلـب موسـكو، ليعكـس هـذا الاحـترام المؤسـسي.

وبينـما تعـاني دول كثـيرة مـن تفـكك الهويـات، تُقـدّم روسـيا نموذجًـا عمليًـا لإدارة التعدديـة بـدون طائفيـة أو عنـف. البوذيـة، الأرثوذكسـية، اليهوديـة، والإسـلام كلهـا ديانـات معـترف بهـا قانونيًـا وتتمتـع بحمايـة الدولـة. ورغـم التحديـات، حافظـت روسـيا عـلى

وحدتها دون أن تقع في فخ الطائفية أو الانقسام.

إن التجربة الروسية تؤكد أن الوحدة لا تعني إلغاء الفروقات، بل احترامها وتنظيمها ضمن مشروع وطني جامع. فعندما تنظر إلى خريطة روسيا، وتسمع لغاتها، وتقرأ آدابها، وتدخل متاحفها، تدرك أن هذه الدولة لا تقوم على مركزية خانقة، بل على فسيفساء وطنية رحبة تتسع للجميع.

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

# عجز عن التنوع... أم خوف من الذات؟

في زمنٍ تتسابق فيه الأمم نحو ترسيخ مفاهيم التنوع والتعددية، ما زال العرب يراوحون مكانهم في سؤالٍ قديم جديد: لماذا لا نحسن التعامل مع اختلافاتنا؟ لماذا ننظر إلى «الآخر» الديني أو العرقي أو الثقافي وكأنه تهديد يجب احتواؤه، بدل أن يكون شريكًا في الوطن والبناء؟

رغم مرور مئات السنين من التعايش، لم نستطع كعرب أن نحوّل هذا التنوع الغني إلى مصدر قوة ونهضة. وظلّ يُوظّف في الغالب كأداةٍ للتخويف أو الإقصاء أو التهميش. وما يجري اليوم في بعض البلدان العربية، من العراق إلى سوريا، يثبت أن المعضلة ليست وليدة لحظة أو صراعٍ مسلح، بل هي أزمة وعيٍ عميقة. فكم من مرّة رأينا الناس يُحاسَبون على أسمائهم، أو طوائفهم، أو أصولهم العرقية، لا على أفعالهم أو سلوكهم؟

لقد اختُزل مفهوم «الوحدة» في اللسان والشعار، بدل أن يُبنى على القبول بالمختلف والعدالة في التمثيل. وكل جماعة تحتمي بهويتها الضيقة، وتُجرّم المختلف عنها، متناسية أن أعظم الحضارات التي عرفها التاريخ، من الأندلس إلى الدولة العباسية إلى مدن الشام العثمانية، لم تزدهر إلا حين احتضنت هذا التعدد وصهرته في مشروع حضاري واحد.

أما في عصرنا الحديث، فقد رأينا كيف قامت دول كبرى على التنوع، لا بالرغم منه. الهند، كندا، جنوب إفريقيا، والولايات المتحدة

كلها نماذج على أن التعددية ليست عبئًا، بل رافعة للديمقراطية والابتكار والوحدة الحقيقية. فالتشابه المفرط لا يعني بالضرورة الانسجام، بل قد يقود إلى احتكاكات أعمق، لأن المشكلة ليست في الاختلاف بحد ذاته، بل في غياب المنظومة التي تديره وتؤطره.

إننا، في عمق أزمتنا، لم نفشل في التنوّع فقط، بل فشلنا قبل ذلك في بناء الدولة. الدولة التي تحكم بالقانون، وتُؤمن بالمواطنة لا بالمحاصصة، وبالحق لا بالامتياز. لذلك، فإن التطرف ليس سوى عرضٍ لمرضٍ أعمق: غياب ثقافة التعدد، وانعدام المؤسسية، وهيمنة النظرة الأحادية.

ولا يُعوّل على تقليص الطيف المذهبي أو الثقافي لتحقيق الاستقرار، فحتى ضمن الطائفة أو الجماعة الواحدة يستمر الاقتتال. لأن جوهر الصراع غالبًا لا يكون في الهويات، بل في ضيق الأفق، وسوء الإدارة، وانعدام الثقة.

التنوع ليس ترفًا ثقافيًا كما يظن البعض، بل هو حاجة وجودية لأي أمة تريد أن تنهض، وتستمر، وتحترم ذاتها. ولن نتقدم ما لم نُدرك أن المختلف لا يقل قيمة، وأن الشراكة لا تعني الذوبان، وأن المجتمعات المتحضرة هي التي تبني من اختلافاتها وحدة، لا التي تُخفي هشاشتها خلف شعارات جوفاء. إن حضارة لا تُحسن إدارة تنوعها، لا تستحق أن تدّعي الرقي.

**الرابط: صحيفة عمون**

★★★

# مؤتمر النهوض بالصحة العامة من أجل المستقبل: المؤتمر الدولي التاسع لجمعية الصحة العامة الأردنية

في مشـهد وطنـي مفعـم بالأمل والتعاون، اختتمـت أعمال مؤتمر "النهـوض بالصحـة العامـة مـن أجـل المسـتقبل" الذي عُقـد في عمّان خـلال الأسـبوع الأول مـن شـهر تمـوز / ٢٠٢٥. وقـد شـكّل المؤتمـر نقطـة تحـوّل نوعية في مسـار تطوير الصحة العامـة في المملكة، حيث اجتمـع ممثلـو الأجيـال المختلفـة مـن العاملـين في القطـاع الصحـي تحـت مظلـة واحـدة، بهـدف البنـاء المشـترك لمسـتقبل أكـثر كفـاءة وعدالة واسـتدامة.

لم يكـن المؤتمـر الـذي شـهد حضـورًا لافتًـا مـن خـبراء ومهنيـين وصنّـاع قـرار مـن داخـل الأردن وخارجـه مجـرد حـدث بروتوكـولي أو تجمـع تقنـي؛ بـل كان منصـة حيّـة لتبـادل الـرؤى، ومجـالًا خصبًـا لتعزيـز الحـوار بـين الجيـل المؤسـس الـذي وضـع اللبنـات الأولى للنظـام الصحـي، والجيـل البـاني الذي طوّره وسـاهم في ترسـيخ بنيته المؤسسـية، والجيـل الجديـد الـذي جاء حاملًا لأفكار حديثـة وأدوات مبتكـرة اسـتجابةً لتحديـات الحـاضر وتطلعـات المسـتقبل.

طُرحـت خـلال المؤتمـر أوراق عمـل غنيـة، ونُظّمـت ورشـات تدريبيـة متخصصـة، تناولـت قضايـا تمـس جوهـر النظـام الصحـي، كالحوكمـة، والتمويل، والرقمنة، والاسـتعداد للطوارئ، وتعزيز العمل

عبر القطاعات، كما تم عرض تجارب محلية ناجحة في تعزيز نظم الرصد والاستجابة، وبناء أنظمة صحية مرنة قادرة على التعامل مع الأزمات والمستجدات.

ولا يمكن الحديث عن نجاح المؤتمر دون الإشادة الصادقة بالجهود الكبيرة التي بذلها الفريق التحضيري، الذي عمل بدقة وتفانٍ خلف الكواليس لأشهر. لقد أظهر هذا الفريق احترافية عالية في التنسيق والتنظيم، وأثبت أن العمل الجماعي المبني على الانتماء والكفاءة هو سر النجاح الحقيقي. لقد أخرجوا المؤتمر بأبهى صورة ممكنة، سواء على المستوى اللوجستي أو العلمي أو التواصلي، فكانوا بحق شركاء أساسيين في هذا الإنجاز.

وبكل امتنان وتقدير، نتوجه بالشكر العميق إلى جميع المشاركين والجهات الوطنية والإقليمية والدولية التي حضرت وشاركت بفاعلية في جلسات المؤتمر. لقد خصّصوا من وقتهم وجهدهم ما يعكس حرصًا صادقًا على النهوض بالصحة العامة، وأضفوا على المؤتمر بعدًا وطنيًا ومهنيا وإنسانيًا راقيًا، يظهر صورة الأردن المتكاتف، المنفتح، والحريص على التقدّم المستند إلى الحوار والمعرفة.

وما زاد من قيمة المؤتمر هو أنه لم يكن منقطعًا عن السياق، بل امتدادًا لجهود متراكمة على مدى سنوات، وثمرة تعاون بين مؤسسات وطنية وخبراء محليين ودوليين، سعت جميعها إلى صياغة نموذج أردني متكامل في تعزيز الصحة العامة، يرتكز إلى

العدالـة، والشراكـة، والتمكـين المجتمعـي.

الحضـور المميّـز للمؤتمـر عـبّر عـن رسـالة واضحـة: الصحـة مسـؤولية الجميـع، وتقدمهـا لا يتحقـق إلا بتضافـر الجهـود وتكامـل الأدوار بـين الأجيـال. ففـي قاعـة واحـدة، وقـف مـن أسـس، ومـن طـوّر، ومـن يسـتمر بالبنـاء والتطويـر يحملـون معًـا همّ هـذا الوطن الغالي، ويسـعون إلى أن تبقى الصحة العامة ركيزة أساسـية في مسـيرة التنميـة الوطنيـة.

ختامًـا، يمكـن القـول إن هـذا المؤتمـر لم يكـن محطـة ختامية، بل بدايـة جديـدة لمرحلـة أكـثر نضجًـا وتخطيطًا في مسـار الصحـة العامة الأردنيـة. مرحلـة تقـوم عـلى الإرادة، والمعرفـة، والاحـترام المتبـادل، وتنظـر إلى المسـتقبل بثقـة وأمـل، تحـت ظـل القيـادة الهاشـمية الحكيمـة التـي جعلـت مـن الإنسـان أولويتهـا الدائمـة.

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

# الدبلوماسية الصحية: ضرورة استراتيجية في عالم متداخل ومتغير:

في المشهد العالمي المعقد الذي نعيشه اليوم، لم تعد الصحة قضية محصورة ضمن حدود المؤسسات الطبية أو النظم الصحية الوطنية، بل أصبحت محورًا أساسيًا في العلاقات الدولية وصنع السياسات. وقد جاءت جائحة كوفيد-١٩ لتكشف بوضوح عما كان معروفًا لكنه غير مُقدّر بالقدر الكافي: الصحة شأن سياسي عميق، يتجاوز الأوطان، ويتقاطع مع كل مجالات الحياة الأخرى. في هذا السياق، برزت الدبلوماسية الصحية كأداة لا غنى عنها لفهم هذا التداخل، والتعامل معه، وتوجيهه نحو مصلحة الشعوب.

تشير الدبلوماسية الصحية إلى استخدام أدوات التفاوض والتعاون الدولي في خدمة الأهداف الصحية، وفي الوقت ذاته، في تعزيز الحوار العابر للحدود، وبناء الثقة، وترسيخ المسؤوليات المشتركة. وهي تشمل طيفًا واسعًا من الفاعلين، من وزارات الصحة والخارجية، إلى المنظمات الدولية، والتكتلات الإقليمية، والجامعات، ومنظمات المجتمع المدني. وعندما تُمارَس بفعالية، تتيح للدول التعامل الجماعي مع التهديدات الصحية، والتفاوض من أجل الوصول العادل إلى التقنيات واللقاحات، وتنسيق الدعم الخارجي بما يتماشى مع الأولويات الوطنية، وبناء علاقات طويلة الأمد قائمة على المنفعة المتبادلة.

وبالنسبة لصنّاع السياسات، لم تعد الدبلوماسية الصحية شأناً هامشيًا أو تقنيًا، بل باتت أولوية استراتيجية. فالعالم اليوم يواجه تقاطعًا متسارعًا بين الأزمات: أوبئة، تغيّرات مناخية، تحديات غذائية، نزوح وهجرة، واضطرابات جيوسياسية. وكل هذه التحديات تُلقي بظلالها على الصحة. ولم يعد من الممكن التعامل مع هذه الظواهر بسياسات قطاعية معزولة. فالصحة الوطنية أصبحت مرتبطة بشكل وثيق بالصحة العالمية. ولا يمكن لأي دولة أن تحمي صحة مواطنيها بمعزل عن التعاون الإقليمي والدولي.

كما أن الدبلوماسية الصحية تفتح الباب أمام إعادة صياغة السياسة الخارجية على أساس المصالح الإنسانية المشتركة. وعندما تُوظّف بشكل صحيح، فإنها تصبح أداة "قوة ناعمة"، تُبرز الدور القيادي للدولة من خلال التعاون لا التنافس. والأمثلة على ذلك كثيرة، من الشراكات الدولية خلال أزمة إيبولا، إلى تنسيق الجهود في إطار مراكز مكافحة الأمراض في إفريقيا، أو المبادرات العالمية لتحقيق العدالة في توزيع اللقاحات. كل هذه النماذج تؤكد أن الصحة يمكن أن تكون جسرًا للتلاقي حتى في أحلك الظروف السياسية.

لكن الآمال الكبيرة التي تُعلَّق على الدبلوماسية الصحية لا تعني أنها بلا تحديات. فهناك تباين في المصالح بين الدول، وفجوات في موازين القوة التفاوضية، وتشتت في أجندات الجهات المانحة، إضافة إلى نقص القدرات المؤسسية في بعض البلدان. ولمعالجة هذه العقبات، لا بد من الاستثمار في بناء كفاءات بشرية مؤهلة تجمع

بين الفهم الصحي العميق ومهارات التفاوض الدولي. وعلى صناع السياسة الخارجية أن يطوّروا بدورهم فهمًا أوسع للديناميكيات الصحية، وإدراكًا لتأثيراتها الاستراتيجية.

إن مستقبل الدبلوماسية الصحية يتطلب تفكيرًا جديدًا والتزامًا سياسيًا طويل الأمد. وينبغي على صناع السياسات الدفع نحو تعزيز التعاون الإقليمي الشامل، بحيث تكون الصحة جزءًا لا يتجزأ من خطط التنمية والبيئة والاقتصاد، وليس مجرد عنصر في حالات الطوارئ. كما يتوجب دعم منصات التعلّم المشترك، وتبادل البيانات، والانخراط المجتمعي العابر للحدود. وقبل كل ذلك، ينبغي إدراك أن الصحة ليست قضية تقنية فقط، بل هي أولوية أخلاقية واستراتيجية في آنٍ معًا، تعكس نوع المجتمع الدولي الذي نسعى لبنائه.

في عالم تتزايد فيه الانقسامات والتحديات المعقدة، تُمثّل الدبلوماسية الصحية مسارًا نحو الانسجام والتكامل. فهي لا تعني فقط الاستعداد للأوبئة القادمة أو تحسين الخدمات، بل تعني تأكيد أن الصحة حق عالمي مشترك، وقيمة إنسانية توحّدنا، وتستحق قيادة مبنية على التضامن والعلم والمسؤولية الجماعية.

الرابط: صحيفة الرأي

★★★

# النهضة الإفريقية الحديثة: هل يشهد العالم ميلاد «نمور إفريقية»؟

في العقـود الأخـيرة، بـدأت إفريقيـا تُعيـد رسـم ملامحهـا بعيـدًا عـن الصـور النمطيـة المرتبطـة بالفقـر والصراعـات، نحو واقـع جديد تقـوده دول تنهـض بهـدوء وتبنـي مسـتقبلًا طموحًـا.

شـهدت إفريقيـا، منـذ خمسـينيات القـرن المـاضي، تحـررًا سياسـيًا واسـعًا مـن الاسـتعمار، لكـن مرحلة ما بعد الاسـتقلال لم تكن سـهلة. فقد واجهـت القارة موجات من الانقلابات، والحـروب، والتبعيات الاقتصادية، والتهميـش العالمـي. ومع ذلك، تُظهر السـنوات الأخيرة تحولًا متسـارعًا في توجهـات العديـد مـن الـدول الإفريقيـة، سـواء مـن حيث الإصلاحـات، أو تطويـر البنيـة التحتيـة، أو تعزيز القدرات المؤسسـية.

تمتلـك القـارة مقومـات هائلة، تبدأ بـثروة بشرية شـابة، حيث إن أكـثر مـن ٦٠٪ مـن السـكان دون سـن الخامسـة والعشريـن، إلى موارد طبيعيـة غنيـة، وموقـع جغـرافي اسـتراتيجي يربـط بـين ثـلاث قـارات. ويُضـاف إلى ذلـك الطفـرة اللافتـة في مجـالات الابتكار الرقمـي، والأمن الصحـي والغـذائي، والتعليم عـن بُعد، والزراعة الذكيـة، والتي أصبحت محـركات جديـدة للتنميـة في دول مثـل كينيـا ونيجيريـا ورواندا.

وتـبرز نمـاذج تنمويـة ملهمـة تؤكـد إمكانيـة التحـول: رواندا مثـال حـي عـلى الحوكمة الرشـيدة والتحـول الرقمي، والسـنغال تعزز

مسارها الديمقراطي مع بنية اقتصادية متوازنة، والمغرب يستثمر بكثافة في الطاقة المتجددة والصناعات المتقدمة، وغانا تتميز باستقرار سياسي ومجتمع مدني نشط، وكينيا تقود الابتكار الرقمي في شرق القارة. أما مصر، فبمشاريعها العملاقة وموقعها المحوري، فهي قوة إقليمية ذات ثقل، رغم التحديات الاقتصادية. وإثيوبيا، رغم الصراعات الداخلية، تحتفظ بإمكانات تنموية ضخمة يمكن أن تترجم إلى نهوض حقيقي إذا تحقق الاستقرار.

ولم يعد العمل الإفريقي المشترك حبرًا على ورق أو شعارات براقة وخطابات رنانة؛ فقد بات الاتحاد الإفريقي أكثر حضورًا وفعالية، سواء من خلال الأمن الصحي عبر تأسيس "مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها الإفريقية" على غرار النماذج الأوروبية والأميركية، والتي قادت جهود الاستجابة لجائحة كوفيد-١٩، ولعبت دورًا محوريًا في تدريب الكوادر، وتنسيق الاستجابات، وتوفير الدعم الفني للدول الأعضاء؛ أو من خلال التدخلات السياسية والأمنية، مثل إرسال بعثات حفظ السلام في الصومال وأفريقيا الوسطى، والوساطات المستمرة في أزمات إثيوبيا ومالي؛ إلى جانب خطوات فاعلة في تعزيز التكامل الاقتصادي من خلال اتفاقية التجارة الحرة القارية التي تمثل مشروعًا طموحًا لتوحيد الأسواق وتعزيز التجارة بين دول القارة.

وعند مقارنة التجربة الإفريقية الصاعدة بما عُرف في التسعينيات بـ»النمور الآسيوية» (كوريا الجنوبية، تايوان، هونغ كونغ، وسنغافورة)، يتضح أن المسارين مختلفان جوهريًا في الرؤية والأدوات. فقد بنت تلك الدول الآسيوية نهضتها على التصنيع

التصديـري، والتعليـم الصـارم، والانخـراط العميـق في سلاسـل القيمة العالميـة، مـع دعم حكومي محكم وتحالفات مدروسـة مع رأس المال العالمـي. أمـا النهـج الإفريقـي، فهـو يتخـذ مسـارًا مختلفًـا في جوهره، حيـث يُعيـد صياغـة التنميـة انطلاقًـا مـن الواقـع المحـلي والإقليمـي، ويرتكـز عـلى اسـتثمار المـوارد الذاتيـة، والتحـول الرقمـي كقاطـرة رئيسـية، وتعزيـز الأمـن الصحـي والغـذائي، وتمكـين المجتمعـات عـبر اللامركزيـة، وتوسـيع شـبكات الحمايـة الاجتماعيـة. لا تنسـخ إفريقيا نمـاذج جاهـزة، بل تُبـدع نمطًا تنمويًا خاصًـا بها، نابعًا مـن احتياجاتها وتاريخهـا وسـياقها المتغـير، ومتكئًـا عـلى الـشراكات الذكيـة بـدلًا من التبعيـات المكلفـة.

أفريقيـا اليـوم ليسـت تلـك التـي عرفهـا العـالم في السـتينيات أو التسـعينيات. إنهـا قـارة تتحـرك، تصعـد، وتبنـي مسـتقبلها بإرادتهـا، وبـشراكات ذكيـة، وبقيـادات واعيـة. والرهـان الأكـبر اليـوم هـو أن تسـتمر هـذه الديناميكيـات في مواجهـة التحديـات المتبقيـة، مـن الديـون، والأطـماع الخارجيـة، إلى النزاعـات الداخليـة، وتغـير المنـاخ.

قـد لا تكـون «نمـورًا» بالمعنـى الحـرفي، لكنهـا بالتأكيـد «نسـور إفريقيـة» تحلـق نحـو المسـتقبل بثقـة متناميـة.

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

# التسرب الاشعاعي: بين دروس تشيرنوبل ومخاوف ايران... الصحة العامة على المحك:

في ظل تصاعد التوترات الجيوسياسية واستهداف منشآت استراتيجية في بعض الدول، تتجدد المخاوف من التبعات الصحية والبيئية للتسرب الإشعاعي، خصوصًا في حال المساس بالبنية التحتية النووية، كما هو الحال حاليًا في إيران. فقد أثبتت التجارب أن التسرب الإشعاعي لا يُقاس فقط بلحظة وقوعه، بل يمتد أثره لأجيال، ويهدد الإنسان والبيئة في آنٍ واحد.

ومع تواتر الأنباء عن ضربات عسكرية في إيران، و استهداف منشآت نووية نشطة مثل نطنز وأراك وفوردو. وعلى الرغم من عدم صدور تقارير رسمية تؤكد حدوث تسرب، فإن مجرد الاحتمال يستدعي أقصى درجات الجاهزية من قبل الدول المجاورة والمنظمات الدولية، تحسبًا لأي طارئ قد يتحول إلى أزمة إقليمية.

التعرض للإشعاع بنسب عالية خلال فترة قصيرة قد يؤدي إلى متلازمة الإشعاع الحاد، وتسبب أعراضًا خطيرة تشمل الغثيان، الحمى، النزيف، وحتى الوفاة. أما التعرض المزمن لجرعات منخفضة، فيرتبط بازدياد معدلات السرطان، والتشوهات الخلقية، واضطرابات في الجهازين العصبي والمناعي. ولا يقف التهديد عند

الإنسـان فقـط، بل يمتد ليشـمل تلوث الهـواء والماء والتربـة، ما يؤدي إلى دخـول المـواد المشـعة في السلسـلة الغذائيـة وتأثيرهـا طويل الأمد عـلى الزراعـة والـثروة الحيوانية.

وفي السـياقات التـي تعـاني مـن هشاشـة في أنظمتهـا الصحيـة، تتضاعف الأخطار. فالتسرب الإشـعاعي يسـتنزف القدرات المحدودة، ويخلـق حاجـة عاجلـة إلى مراكـز متخصصـة، وفـرق طـوارئ مدرّبـة، ونظـم اسـتجابة فعالـة. كما لا يمكـن إغفال الأثر النفـسي والمجتمعي، مـن ازديـاد القلـق الجماعـي إلى التهجـير القـسري وانعـدام الثقـة بالسـلامة العامة.

دروس المـاضي لا تـزال ماثلـة أمامنـا. ففـي كارثة تشـيرنوبل عام ١٩٨٦، تسربـت كميـات هائلة من المواد المشـعة أثرت على مسـاحات واسـعة مـن أوروبـا، وأجبرت مئـات الآلاف على مغـادرة منازلهم، مع ارتفـاع غـير مسـبوق في إصابـات سرطان الغـدة الدرقية بـين الأطفال. وفي فوكوشـيما عام ٢٠١١، أدى زلزال وتسـونامي إلى تسرب إشـعاعي واسـع إلى المحيـط، مـما تسـبب في تداعيـات بيئيـة وغذائيـة لا تـزال اليابـان تتعامـل معها حتـى اليوم.

لقـد تطـورت أنظمة الرصد الدولي بشـكل كبـير، وأصبحت قادرة على كشـف التسربـات خلال دقائق، عـبر الأقـمار الصناعية ومحطات الرصـد التابعـة لمعاهدة الحظر الشـامل للتجـارب النووية. ومع ذلك، فـإن التحليـل العلمـي وتحديـد الأثـر الدقيـق قـد يسـتغرق مـن يوم إلى ثلاثـة أيـام، قبـل أن تُصدر الجهـات المختصة تقييماتها الرسـمية.

في حال وقوع تسرب، توصي المؤسسات الدولية بعدة تدابير عاجلة، منها إنشاء مناطق عازلة، إجلاء السكان، توزيع أقراص اليود، مراقبة المياه والغذاء، وتفعيل خطط الطوارئ الصحية، إلى جانب التوعية المجتمعية الفورية.

ختامًا، يبقى التسرب الإشعاعي من أخطر التهديدات العابرة للحدود، ولا يجوز التعامل معه كاحتمال بعيد أو ظرف طارئ. فآثاره لا تتوقف عند حدود الدول أو زمن الأزمات، بل تمتد لتشكل تهديدًا مستمرًا للأجيال المقبلة. من هنا، فإن الاستعداد، والشفافية، والتعاون الدولي لم تعد خيارات، بل مسؤوليات مصيرية لا تقبل التأجيل.

**الرابط: صحيفة عمون**

★★★

# اعلان قرطاج: خطوة اقليمية لترسيخ نهج الصحة الواحدة في مجال الصحة العامة:

في لحظة مفصلية ضمن مسار التعاون الإقليمي في مجال الصحة العامة، استضافت تونس في ١٤ يونيو ٢٠٢٥ مؤتمرًا رفيع المستوى حول «الصحة الواحدة»، نظمته حكومة الجمهورية التونسية بالتعاون مع البنك الدولي ومنظمات الشراكة الرباعية وهي منظمة الأغذية والزراعة (FAO)، ومنظمة الصحة العالمية (WHO)، والمنظمة العالمية لصحة الحيوان (WOAH)، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP). جمع المؤتمر وزراء وممثلين عن قطاعات الصحة، والزراعة، والبيئة من بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وشهد حضورا رسميا لافتا تصدره وزير الصحة التونسي الدكتور مصطفى الفرجاني، ووزير الزراعة السيد عبد المنعم بلعالية، ووزير البيئة السيدة ليلى الشايبي، إلى جانب عدد من الوزراء العرب المعنيين.

وقد تُوِّجت أعمال المؤتمر بإطلاق «إعلان قرطاج حول الصحة الواحدة»، في خطوة تجسّد التزامًا سياسيًا مشتركًا بتحويل هذا النهج من توصيات تقنية إلى أجندة تنفيذية متكاملة.

يأتي الإعلان في ظل معطيات وطنية وأقليمية، إذ تؤكد الإحصاءات أن أكثر من ٧٥٪ من الأمراض المعدية الناشئة مصدرها

حيواني، وتتسبب في ما يزيد عن ٢,٧ مليون وفاة سنويا. كما تكبّد الأمراض الحيوانية المنشأ الاقتصاد العالمي خسائر سنوية ضخمة تقدر بمليارات الدولارات، فيما تُظهر الأوبئة الكبرى، كالسارس وكوفيد-١٩، حجم الترابط الوثيق بين صحة الإنسان والحيوان والبيئة، والحاجة الملحّة لبناء أنظمة متكاملة لرصد هذه التهديدات والوقاية منها.

يشدّد إعلان قرطاج على أهمية تبنّي نهج شمولي ومتكامل لمواجهة هذه التحديات بشكل وقائي واستباقي، وذلك من خلال دمج مفهوم «الصحة الواحدة» في السياسات والاستراتيجيات على المستويات الوطنية والإقليمية وصولا إلى العالمية، وتعزيز الاستثمار في أنظمة الإنذار المبكر والرصد المشترك، إلى جانب تحديث التشريعات بما يجعلها أكثر مرونة وانسجامًا بين القطاعات الثلاثة. كما نصّ الإعلان على إطلاق مبادرة لإنشاء مركز إقليمي للصحة الواحدة مقره تونس، ليكون منصة للتنسيق وتبادل المعرفة والخبرات بين بلدان الإقليم.

ويُعدّ هذا الإعلان محطة فارقة في مسار الالتزام السياسي الجماعي على مستوى المنطقة، ورسالة واضحة بضرورة إحداث تحول جذري في كيفية التعامل مع الأوبئة، ومقاومة مضادات الميكروبات، وتغيّر المناخ، وتراجع التنوع البيولوجي. فلم يعد نهج «الصحة الواحدة» ترفًا علميًا أو إطارًا تنظيريًا، بل أصبح حاجة استراتيجية لبناء أنظمة صحية مرنة، قادرة على الصمود والاستجابة والتعافي السريع في مواجهة التحديات المعقدة والمتشابكة.

كـما يفتـح الإعـلان المجـال أمـام بلـدان الإقليـم لتعزيـز الحـوار، وتطويـر مشـاريع مشـتركة تقـوم على التكامـل بين القطاعـات، وتبنّي الممارسـات الفضـلى القائمة إلى الأدلة العلميـة والخبرة العملية. وبهذا، يشـكّل «إعـلان قرطـاج» إطـارًا إقليميًا واعدًا يُجسّـد تطـورًا في الوعي السـياسي والمؤسـسي بأهميـة التعـاون التشـاركي العابـر للقطاعـات والحـدود، لضـمان صحة الإنسـان، وسـلامة الحيوان، واسـتدامة البيئة في آن واحـد.

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

## نحن والمرجعيات الثلاث: تساؤلات في العمق الاجتماعي:

منذ بدايات شبابي، كنت أراقب تفاصيل الحياة من حولي: في البيت، في الشارع، في وفي محيط العمل. لم أكن ممن يسيرون مع التيار بلا تساؤل، بل كنت مأخوذًا دومًا بسؤال مؤرق: لماذا نعيش بهذه الطريقة؟ من يقرّر بالنيابة عنا؟ ولماذا يشعر الإنسان في مجتمعاتنا أنه ملزمٌ دائمًا بتبرير كل سلوك أو خيار؟ كم مرة سألني صديق أجنبي، مستغربًا: «لماذا تفعل هذا؟»، فأجيبه بتلقائية ممزوجة بالاستسلام: «هكذا نشأنا، هكذا يُفعل هنا، هكذا ديننا، وهكذا مجتمعنا يرى الأمور.» ومع مرور الوقت، أدركت أن كثيرين من حولنا لا يعيشون لأنفسهم ومنهم أنا؟ بل يعيشون وفق توقعات الآخرين، يلاحقون رضاهم، يتحاشون أحكامهم، حتى وإن كلفهم ذلك خنقًا داخليًا لا يُحتمل.

في الأردن، كما في عموم العالم العربي، يتنازع سلوك الإنسان ثلاث قوى كبرى: الدين، القانون، والأعراف المجتمعية. لكل مرجعية منها سلطتها، لكن الصراع بينها كثيراً ما يضع الفرد في مأزق دائم، يحاول فيه أن يُرضي الجميع، فلا يرضى عن نفسه. كم من شاب او شابه اختار تخصصًا دراسيًا لا يميل إليه لأنه «يرفع الرأس»؟ وكم من فتاة عربية كُمِم طموحها تحت شعار «الناس بتحكي»؟ وكم من امرأة حُرمت من حقها في الطلاق أو العمل أو الدراسة خشية أن تتحدث العائلة أو الجيران؟ وكم من رجل أخفى

مشـاعره، ولم يسـمح لنفسـه بالبـكاء أو الشـكوى، لأن الرجولـة -وفق العـرف- لا تحتمـل الانكسـار؟

الديـن، في جوهـره، لم يكـن أبـدًا قيـدًا عـلى الإنسـان، بـل رسـالة تحـرر مـن الخـوف والـذل والتبعيـة. لكـن حـين يُختـزل في شـكله دون روحـه، ويُقـدّم عـبر منظـار العادة لا النـص، يتحـول إلى أداة تبرير لقمع اجتماعـي مغلّـف بهالـة مـن القداسـة. أمـا القانـون، فمهـما بلـغ مـن التقـدم، يبقـى في كثـير مـن الأحيـان عاجـزًا أمـام ثقافـة الشـارع، حيـث تُخـشى نظـرة الحـارة أكـثر مـن نـص القانـون، ويُحسـب حسـاب تعليـق العـمّ أو الخـال أو الجـار أكـثر مـما يُحسـب حسـاب النظـام والدسـتور.

نحـن نعيـش في واقع اجتماعي زاخر بالتناقضات. الشـاب الأردني أو المـصري أو اللبنـاني أو المغـربي كـما غيرهـم يخـرج من منزلـه ليقرأ عـلى لافتـات الدولة شـعارات عن الحريـات والتمكـين والكرامة، لكنه سرعـان مـا يصطـدم بجـدران غـير مرئيـة: أحـكام مسـبقة، نظـرات متفحصـة، وهمسـات خفيـة، تمـارس جميعهـا رقابـة اجتماعيـة لا ترحـم. هـذه الأعـراف، وإن لم تكتـب في الدسـاتير، وإن لم تنطـق بهـا النصـوص الدينيـة، فإنهـا تحكـم الواقـع بقـوة صامتـة، لكنهـا نافذة.

انظـر إلى «جرائـم الـشرف» مثـلًا، التـي تراجعـت قانونيًـا في الأردن وعـدد مـن الـدول، لكنهـا لا تـزال تلقـى تعاطفًـا ضمنيًـا في بعـض الأوسـاط. أو تأمـل حجـم التنمّـر المجتمعـي ضـد مـن يخـرج عـن المألـوف، سـواء في اللبـاس، أو المهنـة، أو الـرأي، أو حتـى مجـرد الحديـث عـن مشـكلته النفسـية. لا تـزال الصحـة النفسـية موضوعًـا محظـورًا في الكثـير من البيئـات العربية، لأن الاعتراف بالهشاشـة يُعد في العُـرف ضعفًـا، لا إنسـانية.

الأعراف المجتمعية ليست شرًا في جوهرها؛ فهي نتاج تطوري لحاجة الجماعات إلى التنظيم والانسجام، لكنها تصبح عبئًا حين تعيق التغيير وأحيانا التقدم، أو تفرّغ الحقوق من مضمونها، أو تبرر الظلم باسم المحافظة. المطلوب ليس هدمها، بل نقدها، تهذيبها، وتجديدها بما يتماشى مع مقاصد الدين وروح القانون وكرامة الإنسان. فالقانون يجب أن يُفعّل كأداة لحماية الفرد، لا أن يُفرّغ أمام ضغط الجماعة. والدين يجب أن يُستعاد في جوهره، لا في مظهره. أما الأعراف، فينبغي أن تُراجع، لا أن تُقدَّس. نحن بحاجة إلى ثورة وعي، لا ثورة غضب. بحاجة إلى تربية جديدة، تُنبت أجيالًا تُحسن التفكير، والمساءلة، والمحاججة، لا فقط الطاعة والتبرير. أن نقول لأبنائنا: عِشْ لنفسك بكرامة، لكن لا تظلم أحدًا، واحترم حقك وحق غيرك. أن نغرس فيهم قيمًا لا تخشى كلام الناس، بل تحترم صوت الضمير. إننا اليوم لا نواجه أزمة قانون، ولا أزمة دين، بل أزمة ثقافة مجتمعية تُمارس وصايتها على الفرد باسم العيب، والعادة، والسُمعة. والمطلوب من العائلة والمثقفين، والمربّين، وصنّاع القرار، والإعلاميين، أن يقودوا حوارًا عميقًا يُعيد ترتيب العلاقة بين هذه المرجعيات الثلاث. حوارًا يُحرر الإنسان العربي من معركة مستمرة بين ما هو حق، وما هو متوقَّع منه. حوارًا يسمح له أخيرًا أن يكون ذاته: بلا خوف، بلا تمويه، وبلا إذنٍ من الآخر.

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

# الأضحية مسؤولية ومظهر حضاري: بين تعظيم الشعيرة وصون الصحة والبيئة:

مع حلول عيد الأضحى المبارك، تعيش المجتمعات الإسلامية في معظم أنحاء العالم أيامًا عامرة بالفرح والتكافل، وتُعد الأضحية أحد أبرز مظاهر هذا العيد المبارك، تجسيدًا لقيم التكافل والإخاء، وتعزيزًا لمعاني القرب من الله عز وجل، إلا أن أداء هذه الشعيرة العظيمة لا يكتمل على الوجه الصحيح إلا حين تُمارس وفقًا لأسس شرعية وصحية وبيئية تضمن سلامة الإنسان والبيئة والمجتمع على حد سواء.

إن تخصيص أماكن محددة ومعتمدة لتنفيذ الأضاحي ليس إجراءً تنظيميًا فحسب، بل هو جزء لا يتجزأ من مفهوم المسؤولية المجتمعية. ففي كثير من الأحيان، يؤدي ذبح الأضاحي خارج الأماكن المخصصة إلى انتشار الروائح الكريهة، وتجمع الحشرات، وتلوث المياه والطرقات، بل وقد يشكل خطرًا صحيًا مباشرًا على الأفراد، خاصة في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية أو البنية التحتية الضعيفة.

كما أن الذبح العشوائي قد يُلحق ضررًا مباشرًا بالبيئة التي نعيش فيها، ويحول أيام العيد من مساحة للتكافل والتآخي، إلى مصدر تذمر بيئي وصحي يعكّر صفو العيد على الجميع. فالنفايات الحيوانية غير المعالجة، وتلويث مجاري المياه، وتشويه المنظر العام، كلها نتائج يمكن تجنبها بسهولة عبر الالتزام بتعليمات

البلديات والجهات الصحية، والتوجه إلى المسالخ المرخصة او على الأقل الأماكن المرخصة التي تم اختيارها وأحيانا تجهيزها لاستيعاب هذه الأعداد الكبيرة من الأضاحي، وفق معايير النظافة والسلامة.

الالتزام بهذه الإجراءات لا يقل شأنًا عن أداء الأضحية نفسها. بل إن من تمام القرب إلى الله أن نحرص على ألا يُؤذى أحد، وألا تُلوَّث بيئة، وألا تُخرق قوانين النظافة والسلامة العامة التي وُضعت لمصلحة الجميع. فمن جوهر الشريعة الإسلامية، المحافظة على النفس، والرفق بالحيوان، والحفاظ على الصحة العامة، وكلها تُختبر في مثل هذه المناسبات.

وفي ظل ما يشهده العالم اليوم من أوبئة ومخاطر صحية متجددة، تصبح هذه التعليمات أكثر من ضرورة، بل واجبًا دينيًا ومجتمعياً. فالامتناع عن الذبح في الأماكن العشوائية، والتخلص السليم من مخلفات الأضاحي، كلها خطوات تُسهم في حماية المجتمع من العدوى، وتحافظ على المظهر العام، وتُبقي للعيد قدسيته ونقائه.

إن عيد الأضحى ليس مناسبة فردية، بل موسم تتشارك فيه الأسر والمجتمعات شعائرها. ومن واجب كل فرد أن يجعل من هذه المشاركة مناسبة إيجابية وآمنة للجميع. فليكن التزامنا بالتعليمات، واحترامنا للبيئة، وحرصنا على الصحة العامة، جزءًا من عيدنا، وأحد وجوه تعظيم هذه الشعيرة المباركة.

**الرابط: صحيفة عمون**

★★★

# الحوار الصحي بين دول الشمال والجنوب: طريق محفوف بالتحديات والفرص:

واخيرا وبعد مفاوضات استمرت لمدة ثلاث سنوات بين الدول المختلفة وجلسات مارثونية واتفاقيات ولوبيات مختلفة، وما بين مد وجزر، تم الاتفاق وإطلاق اتفاقية منظمة الصحة العالمية للجوائح خلال فعاليات الجمعية العالمية للصحة الـ٧٨ في جنيف الذي عقدت خلال هذا الشهر (أيار، ٢٠٢٥)، والتي تم صياغتها بعد حوار مستفيض واتفاق شامل، ومبادلة مستمرة للملاحظات والمصالح والانتقادات بين جميع الدول المعنية ونحو تعزيز الاستجابة العالمية للجوائح من خلال ضمان الوصول العادل إلى اللقاحات والعلاجات والتشخيصات. والأهم من ذلك، أن الإتفاقية تحترم السيادة الوطنية بوضوح، حيث تنص على عدم منح منظمة الصحة العالمية صلاحية فرض سياسات أو إجراءات إلزامية على أي دولة، مما يؤسس لقاعدة متينة من الاحترام المتبادل والشراكة الحقيقية.

لطالما كان الحوار بين الشمال ( الدول الغنية ) والجنوب ( الدول متوسطة و متدنية الدخل ) موضوعًا مركزيًا في النقاشات الدولية المتعلقة بالتنمية، ولكن عندما يتعلّق الأمر بمجال الصحة، يصبح هذا الحوار أكثر حساسية وتعقيدًا لارتباطه بحياة الإنسان، فبينما يمتلك الشمال - بما في ذلك الدول ذات الاقتصادات

المتقدمة - موارد مالية وتقنية هائلة، يواجه الجنوب - المتمثل في الدول النامية والأقل نموًا - تحديات متراكمة تتعلق بالبنى التحتية الصحية، وندرة الكوادر، والأعباء الوبائية، والتأثر غير المتكافئ بالأزمات العالمية.

ومع تزايد التفاوت بين الدول، خصوصًا بعد جائحة كوفيد-١٩، أصبح من الواضح أن الأمن الصحي لم يعد شأنًا محليًا، بل مسؤولية مشتركة تتطلب توازنًا في الحوار والتخطيط بين الشمال والجنوب. إلا أن هذا الطريق ليس معبّدًا، بل محفوف بالتحديات السياسية والاقتصادية، وأحيانًا الثقافية، التي قد تعيق إقامة شراكات حقيقية قائمة على الإنصاف لا التبعية.

أحد أبرز التحديات يتمثل في اختلال ميزان القوة في هذا الحوار. ففي كثير من الأحيان، تأتي المبادرات الصحية من الشمال مشروطة أو موجهة وفقًا لأولوياته، دون مراعاة كافية لخصوصيات واحتياجات الجنوب. ويؤدي هذا إلى برامج غير مستدامة، أو حلول مؤقتة لا تُحدث الأثر العميق المطلوب.

من ناحية أخرى، تعاني بعض الدول الجنوبية من ضعف في الحوكمة الصحية وغياب آليات واضحة للتفاوض أو التأثير في أجندة التعاون الدولي. كما أن تفاوت القدرات البحثية والصعوبات في جمع وتحليل البيانات تعيق قدرة هذه الدول على طرح رؤى مستندة إلى الأدلة.

رغم هذه التحديات، هناك فرص حقيقية للنهوض بالحوار

الصحـي بـين الشـمال والجنـوب، إذا ما تم بناؤه على أسـاس التشـارك في المعرفـة، وتبـادل الخـبرات، وتقدير دور المجتمعـات المحلية. إذ أن بعض الـدول الجنوبيـة أظهـرت مرونة وقدرات اسـتجابة تفوقـت على نظيراتها في الشـمال، مـا يؤكـد أن الحلـول ليسـت حكـرًا عـلى جهـة دون أخرى.

إن تطويـر هـذا الحـوار يتطلـب نقلـة نوعيـة في فلسـفة التعاون الصحـي العالمـي، مـن منطـق المسـاعدة إلى منطـق الشراكـة، ومـن التوجيـه الأحـادي إلى التخطيـط المشـترك. كـما يجـب دعـم إنشـاء منصـات إقليميـة تعزز من صـوت الجنوب وتجمع التجـارب الناجحة فيـه، ليكـون طرفًـا فاعـلًا لا متلـقٍ فقط.

في الختـام، يمكـن القـول إن الطريـق نحـو حـوار صحـي عـادل وفاعـل بـين الشـمال والجنـوب لا يـزال طويـلاً، لكنـه ليس مسـتحيلاً. فقـط عـبر الاعـتراف بالتحديـات المشـتركة، واحـترام الخصوصيـات، وتعزيـز الثقـة المتبادلـة، يمكـن تحويـل هـذا الحـوار إلى أداة فاعلـة لتحسـين صحـة الشـعوب في كل مـكان.

**الرابط :صحيفة عمون**

★★★

## التعليم واللغة.. بين اختلاف الفرص وضياع الهوية

في الوقت الذي تُعيد فيه دول العالم بناء أنظمتها التعليمية على أسس حديثة، وتشجّع لغاتها الوطنية باعتبارها ركيزة للسيادة الثقافية، يواجه الوطن العربي أزمةً مزدوجة تتجلى في تباين فرص التعليم، وتراجع الاهتمام باللغة العربية، وسط مشهد تعليمي يشهد تصاعدًا للفجوة الطبقية والمعرفية.

لقد بات واضحًا أن هناك تباينًا كبيرًا في الأنظمة التعليمية داخل الوطن العربي. فهناك مدارس تعتمد مناهج تقليدية محدودة الموارد، تقابلها مؤسسات تعليمية خاصة أو دولية تتبنى مناهج أجنبية، وتوفّر بيئة حديثة تُعزز المهارات اللغوية والتفكير النقدي. هذه الفجوة لا تعكس فقط اختلافًا في نوعية التعليم، بل تنتج عنها أيضًا طبقية حقيقية في فرص الحياة.

تتعمق هذه الفجوة حين نُقارن بين المناطق المركزية في المدن الكبرى وبين المناطق الريفية أو المهمشة، حيث تتفاوت البنية التحتية، وكفاءة المعلمين، وتوفر المواد التعليمية الحديثة. فحتى لو تساوى الطلبة في الطموح والذكاء، فإن مناهج التعليم المتقدمة تُتاح لفئة محدودة، بينما يُترك الباقون لمناهج متقادمة تفتقر إلى أدوات العصر.

وفي قلب هذه الأزمة تقف اللغة الأجنبية، وعلى رأسها الإنجليزية، كلاعب أساسي في صناعة التفاوت. لم تعد اللغة الأجنبية مجرد أداة معرفية أو نافذة على العالم، بل أصبحت شرطًا ضمنيًا للقبول في سوق العمل والوظائف القيادية. كثيراً ما يُفضل المتقدم المتقن للغة الأجنبية على غيره، حتى إن كان الأخير أكثر تفوقًا أو كفاءة في تخصصه.

الأمر الأخطر هو تراجع المكانة الحقيقية للغة العربية في مدارسنا، وجامعاتنا، وأحيانًا حتى في خطابنا اليومي. لقد أصبحت قطاعات واسعة من المجتمع تخجل من استخدام العربية، وتخلطها بلغات أجنبية في مظاهر سطحية، ظنًا أن ذلك يمنحها مكانة أعلى. هذا في الوقت الذي تتمسك فيه أمم عديدة بلغاتها الأم، وترى فيها مصدر فخرٍ وقوة. أما نحن، فقد بدأنا نخسر ما هو أعمق من المهارة: الهوية.

لقد أنتج هذا الواقع طبقتين تعليميتين: الأولى تتقن اللغات الأجنبية وتتمتع بفرص الوصول إلى الوظائف المرموقة ومراكز التأثير، وغالبًا ما تنتمي إلى الفئات الأكثر حظًا. والثانية تُقصى من هذه الفرص لا لنقص في القدرات، بل لضعف في الأدوات التي وفّرها لها النظام التعليمي. وهنا لا نتحدث عن الفئات الدنيا أو النخب، بل عن الفئة الوسطى التي أصبحت تُستنزف وتُقصى تدريجيًا، رغم أنها كانت سابقًا عماد المجتمعات.

إن التعليم في الوطن العربي بحاجة إلى مراجعة شاملة تُعيد الاعتبار للعدالة في توزيع الفرص، وتُصوّب مسار اللغة بوصفها وعاء الفكر والحضارة. ليست اللغة العربية عبئًا، بل كنزًا فقدنا

الإحساس بقيمته، وليست اللغة الأجنبية عدوًا، بل أداة يجب أن تُوضع في مكانها الصحيح.

إن الإنصاف في التعليم والاعتزاز باللغة هما حجر الأساس لأي نهضة حقيقية. ومن دون إصلاح هذا الخلل، سنبقى نُنتج أجيالاً تعيش التناقض: تعرف كثيرًا، لكن لا تنتمي لشيء.

**الرابط: صحيفة عمون.**

★★★

## العمل.. أكثر من وظيفة :

حين نبدأ مسيرتنا المهنية، نظن أن العمل يقتصر على المهام اليومية: تقارير نكتبها، اجتماعات نحضرها، وخطط نُنجزها. لكن مع مرور الوقت، تتغير نظرتنا تدريجيًا، ونُدرك أن جوهر العمل لا يُقاس فقط بالإنتاج، بل بما نبنيه من علاقات، وبما نُظهره من مواقف، وبالدعم الذي نتلقاه ونُقدّمه في اللحظات الصعبة.

قد لا نُدرك هذا المعنى إلا عندما نُواجه ظرفًا استثنائيًا، كغياب أحد الزملاء بسبب وعكة صحية. هنا، تُختبر الروابط الحقيقية بين أعضاء الفريق: هل نحن مجرد زملاء، أم أننا أكثر من ذلك؟ هل مؤسستنا مساحة للعمل فحسب، أم بيت نلجأ إليه في الشدائد؟.

في مؤسستنا، مرت إحدى الزميلات بتجربة صحية صعبة. المفاجأة كانت أن عددًا غير قليل من الموظفين تابعوا حالتها عن قرب، وحرصوا على التواصل المستمر معها، يطمئنون ويساندون ويدعمون. لم يكن ذلك واجبًا رسميًا، بل تصرفًا نابعًا من نقاء السريرة وإنسانية رفيعة، يعكس روحًا عالية من المسؤولية والانتماء. والأجمل أن هذه اللفتة تكررت مع أكثر من زميل وزميلة مرضوا في نفس الوقت، ما يؤكد أن هذه الروح لم تكن استثناءً، بل سلوكًا أصيلاً في الفريق بدرجات متفاوتة.

لهؤلاء جميعًا، نقول شكرًا من القلب. لقد أثبتم أن العمل لا

يُقاس فقط بكم ننجز، بل بكيف نكون إنسانيًا. وجود أمثالكم في أي مؤسسة يمنحها الحياة، ويعيد التأكيد على أن النبل والمروءة لا يزالان حيّين في بيئاتنا.

لكننا في المقابل، لا ننكر وجود من لم يشارك بهذه الروح. قد يكون ذلك نتيجة لثقافة مهنية مختلفة، أو لقناعات أخرى حول طبيعة العلاقات في العمل. وهذا ليس مجالًا للّوم، بل دعوة لتعزيز الوعي الجمعي، وترسيخ ثقافة إنسانية في العمل، تجعل من المؤسسة مساحة نمو متبادل، لا ساحة تنافس فقط.

المفارقة الجميلة أن الفريق لم يتوقف رغم غياب زميلته، بل واصل العمل بنفس حيويتها، بروحها، وبتأثيرها الذي بقي واضحًا. لقد غابت جسدًا، لكنها كانت حاضرة بإرثها المهني، وبصمتها التي تركتها في الفريق.

أما هي، فقد رأت في هذه التجربة وجهًا آخر للعمل. أدركت أنها تنتمي إلى فريق لا تُقاس روابطه بعقود العمل، بل بالمحبة والدعم والصدق. لم تكن السنوات الماضية مجرد تجربة مهنية بالنسبة لها، بل حياة مليئة بالرفقة الصادقة والروح العائلية.

وهكذا، برهنت التجربة على أن المؤسسات القوية هي التي تضع الإنسان أولًا، وتُحسن دعمه في ضعفه، كما تثمّن إنجازه في قوّته. المرض ليس سوى استراحة، والعودة بعده تكون أجمل حين يجد الموظف في انتظاره فريقًا متماسكًا، حقيقيًا، لا تغيب عنه الأخوّة.

في نهايـة المطـاف، العمـل ليـس فقـط مـا نفعلـه، بل مـا نتركه في قلـوب الآخريـن. وعندمـا نجـد من يـواسي، ومـن يهتم، ومـن يتجاوز الحواجـز بـين الزمالـة والإنسـانية، نكـون أمام مؤسسـة لا تُقـدّم فقط خدمـات... بل تقـدم نموذجًـا يُحتذى.

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

## أهمية الطب البيطري في الصحة والاقتصاد:

في خضم التحديات الصحية والبيئية والغذائية التي تواجه عالمنا اليوم، يبرز دور الطبيب البيطري بوصفه أحد أهم ركائز منظومة «الصحة الواحدة»، وهي المنظومة التي تربط بين صحة الإنسان والحيوان والبيئة في تكامل لا يمكن تجاهله.

ومع إحياء يوم البيطري العالمي، الذي يُصادف السبت الأخير من شهر نيسان كل عام، تتجدد الدعوة إلى تقدير هذا الدور الجوهري وتسليط الضوء على مهنة لا تزال تعمل في الظل رغم عمق تأثيرها في حياة البشر. فالطبيب البيطري ليس فقط من يُعالج الحيوانات، بل هو من يحمي الإنسان من أمراض قد تنتقل إليه دون أن يشعر، ومن يساهم في ضمان سلامة الغذاء الذي يتناوله، والبيئة التي يعيش فيها.

إن ما يقارب ٦٠٪ من الأمراض المعدية التي تصيب الإنسان مصدرها الحيوان، كما أن نحو ٧٥٪ من الأمراض المستجدة في العقود الأخيرة مثل الإيبولا والسارس وكوفيد-١٩، كان منشأها حيوانياً. هذه الأرقام كافية لتوضيح حجم المسؤولية الملقاة على عاتق الطبيب البيطري في الوقاية والتصدي للأوبئة قبل أن تتفشى وتتحول إلى كوارث صحية.

ولا يقتصر أثر الطبيب البيطري على الجانب الصحي فقط، بل يمتد إلى الاقتصاد والأمن الغذائي، إذ تُقدّر الخسائر العالمية الناتجة عن الأمراض الحيوانية المنشأ بما يفوق ٨٠ مليار دولار سنويًا، وهي خسائر يمكن تقليصها بشكل ملموس إذا ما تم الاستثمار في البنية البيطرية وتأهيل كوادرها.

كما أن لهذا الطبيب دورًا بيئيًا بالغ الأهمية، فالتربية غير المنظمة للحيوانات تسهم بنسبة تتجاوز ١٤٪ من الانبعاثات الكربونية العالمية، ويستطيع الطبيب البيطري أن يلعب دورًا محوريًا في تقنين هذه الممارسات وتعزيز أساليب الإنتاج الحيواني المستدام.

كذلك، يُعد الاستخدام المفرط وغير المنضبط للمضادات الحيوية للحيوانات من أهم مسببات ظاهرة مقاومة المضادات البكتيرية، وهي ظاهرة يُتوقع أن تودي بحياة أكثر من عشرة ملايين شخص سنويًا بحلول عام ٢٠٥٠، حسب تقديرات منظمة الصحة العالمية.

وهنا تتضح مرة أخرى أهمية وجود الطبيب البيطري كخط دفاع علمي ورقابي وتوعوي في مواجهة هذا الخطر العالمي. ورغم هذا الدور المتعدد الأبعاد، لا يزال الطبيب البيطري يعاني من نقص في الاعتراف والدعم في كثير من بلداننا العربية، حيث تقلّ الإمكانيات وتتراجع فرص التدريب والتطوير، ولا يُشرك الأطباء البيطريون في التخطيط الصحي إلا في حالات نادرة.

إن تعزيز هذا القطاع الحيوي يبدأ بإرادة سياسية حقيقية، واستثمار مؤسسي في التعليم والبحث والموارد، ورفع مستوى الوعي المجتمعي بأهمية هذه المهنة. وفي هذه المناسبة، وكذلك بمناسبة انتخاب مجلس نقابتهم في نهاية الإسبوع الماضي أتوجه بتحية احترام وتقدير لكل طبيب بيطري يعمل بصمت في الميدان أو في المختبر، ولكل من يحمل عبء المسؤولية دون انتظار شكر أو مكافأة.

إن دعم الطبيب البيطري ليس خيارًا، بل ضرورة تمليها تحديات الواقع ومقتضيات المستقبل، وبدونه لا تكتمل منظومة الصحة العامة ولا يتحقق هدف الصحة الواحدة الذي نسعى إليه جميعًا.

الرابط: صحيفة الرأي.

★★★

## بيروت حزينة.. لا تبكي لكنها تنزف:

منـذ لحظـة وصـولي إلى مطـار بـيروت، شـعرت أن شـيئًا مـا قـد تبـدّل في هـذه المدينـة التـي عرفتهـا لسـنوات. لم تكـن تلـك المدينـة التـي أحببتهـا بـكل فوضاهـا ودفئهـا وكرامتهـا العاليـة. هـذه المـرة، بـدت بـيروت منهكـة، محمّلـة بثقـل لا يمكـن إخفـاؤه.

بـيروت التـي عرفناهـا صلبـة، مشاكسـة، مشرقـة رغـم كل ما مرّ بها، باتت اليوم متعبة. شـهدتُ فيها في السـابق محطات لا تُنسى من اغتيـالات، إلى ثـورات السـاحات، إلى عودة المنفيين وخروج السـجناء، إلى وجـوه الشـباب المضيئـة بالحلـم. لكن بـيروت اليوم تُشـبه مدينة أُنهكـت مـن البكاء، ولم يبـقَ في صوتها سـوى الصمت.

في إحدى تنقلاتي البسـيطة من الكافيتيريا إلى الفندق، عبر سـائق تاكـسي مسـافة قصـيرة، لم تتجاوز العـشر دقائق، حدث مـا لم أتوقعه. لم تمـر لحظـات حتـى سـالت دمعـة على خـدّه، وقال بصـوت منكسر: «نايـم بسـيارتي مـن سـت أو سـبع أيـام... بـس حتى أقـدر أبعث شي لأولادي. بيتـي تهـدّم، ومـرتي والولاد سـاكنين عند أهلهـا بالجنوب».

كان صادقًـا في تعبـيره، لا يسـتجدي، لا يتذمّـر، فقـط يـروي. وفي روايتـه، تختـصر بـيروت اليـوم: أبٌ يفـترش سـيارته، أمٌّ تُـؤوي أبناءها في بيـت أهلهـا، أطفـالٌ بـلا دفء، رجالٌ يتظاهـرون بالقـوة وقلوبهم مكسورة.

الحـرب الأخـيرة زادت المشـهد ألمًـا. أعـادت أصـوات الغـارات والصواريـخ مشـاهد لا تُنـسى، وكأن بـيروت لا تعـرف غير إعـادة الألم

في نسخ متكررة. وإن لم تكن المدينة ساحة المعركة، إلا أن حزنها حمل وجع الجنوب كاملاً، وارتدت ثوب الحداد من جديد، فوق أثوابها الكثيرة التي لم تخلعها منذ سنوات.

لكن الحرب ليست وحدها ما كسر بيروت. الانهيار الاقتصادي المتسارع، وغياب الخدمات الأساسية، وانتشار العتمة في البيوت والقلوب على حد سواء، كلها دفعت الناس إلى الحافة. بتُّ أرى التعب في الوجوه، والحيرة في النظرات، والخوف في عيون الأطفال.

ورغم كل ذلك، لا تزال في بيروت شرارة. شيء صغير يقاوم. قد تكون أغنية، أو قصيدة، أو طفل يصرّ على الضحك. إنها بيروت، وإن انكسرت، لا تموت.

نعم، بيروت تحتاج إلى الصلاة. إلى دعاء يخرج من القلب، لا من المناسبات. لكنها أيضًا تحتاج إلى أكثر من ذلك. تحتاج إلى من يمدّ لها يد العون الحقيقية، من يتجاوز الجراح والخلافات، ويجتمع على حبها.

بيروت لا تريد الشفقة، بل الوفاء. تحتاج إلى مبادرات إنسانية، إلى مسؤولية عربية وعالمية، إلى تكاتف لا تفرضه السياسة، بل تُمليه الأخوّة. فكما نصلّي لها، علينا أن ننهض بها، أن نمسك بيدها لا لنبكيها، بل لننقذها.

بيروت اليوم ليست فقط مدينة... إنها امتحان ضمير.

**الرابط: صحيفة عمون**

# تعزيز الأمن الصحي في الوطن العربي.. الهيئة العربية لمكافحة الأمراض والوقاية منها:

في ظل التحديات الصحية المتزايدة التي تواجه الدول العربية، تبرز الحاجة الملحة إلى تعزيز التعاون الإقليمي وتوحيد الجهود لمواجهة الأوبئة والأمراض المتفشية، إضافةً إلى مكافحة الأمراض غير السارية التي تشكل أكثر من ٧٠٪ من الوفيات عالميًا وفقًا لمنظمة الصحة العالمية. ورغم وجود «مجلس وزراء الصحة العرب» التابع لجامعة الدول العربية منذ عام ١٩٧٥، إلا أن غياب هيئة تنفيذية متخصصة تُعنى بتطبيق السياسات الصحية يحدّ من فعاليته في التعامل مع الأزمات الصحية المتسارعة التي تحتاج الى حلول تطبيقية.

تجارب دولية وإقليمية عديدة أثبتت فعالية إنشاء مراكز تنفيذية للصحة العامة، حيث أنشأ الاتحاد الأوروبي «المركز الأوروبي للوقاية من الأمراض ومكافحتها (ECDC)» عام ٢٠٠٤، والذي لعب دورًا حيويًا في تنسيق الاستجابات للأوبئة وتبادل المعلومات بين الدول الأعضاء، لا سيما خلال جائحة كوفيد-١٩.

كما أطلق الاتحاد الأفريقي عام ٢٠١٦ «المراكز الأفريقية لمكافحة الأمراض والوقاية منها» لتعزيز القدرات الصحية في القارة ومكافحة التحديات الصحية العابرة للحدود. في السياق الخليجي، شهد عام

٢٠١٧ تأسيس «المركز الخليجي للوقاية من الأمراض ومكافحتها»، الذي يعمل على دعم تنفيذ السياسات الصحية المشتركة لدول مجلس التعاون الخليجي، وتنسيق الاستجابات للأوبئة، وتعزيز البحث العلمي، ومكافحة مقاومة المضادات الحيوية.

هذه التجارب عززت قدرات الدول والمناطق، فبدلاً من الاعتماد المستمر على الدعم الخارجي، أصبحت تعتمد على الكفاءات الوطنية والإقليمية، مما أسهم في تعزيز التعاون والتفاهم المشترك، وعززت من موقعها التفاوضي على الساحة الدولية.

رغم هذه الجهود، لا يزال العالم العربي يفتقر إلى جهاز تنفيذي موحد يعنى بتطبيق السياسات والخطط الصحية على المستوى الإقليمي.

إن إنشاء «الهيئة العربية لمكافحة الأمراض والوقاية منها» او مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها العربية يعدّ خطوة ضرورية لسد هذه الفجوة وتعزيز القدرات العربية في مواجهة التحديات الصحية المشتركة. من شأن هذا المركز أن يوفر منصة لتبادل البيانات الصحية والمعلومات الوبائية بين الدول الأعضاء، مما يعزز القدرة على الاستجابة السريعة المشتركة للأوبئة، والامراض التي لا تعرف الحدود، ويحدّ من انتشار الظواهر غير الصحية ذات الخطر المشترك مثل التدخين وتعاطي المخدرات، ويشجع على تطوير البحوث العلمية التي تشكل أساسًا للسياسات الصحية المستدامة. كما سيسهم في توجيه الاستثمارات نحو تطوير البنية التحتية

الصحية وتدريب الكوادر الطبية، مما يعزز من جاهزية الدول العربية لمواجهة الأزمات الصحية المستقبلية. وخاصة ما تشهده المنطقة من عدم استقرار وحروب.

رغم أهمية هذه الخطوة، إلا أن إنشاء هكذا كيان يواجه عدة تحديات، أبرزها التباين الكبير في الأنظمة الصحية بين الدول العربية وطرق تمويلها، مما قد يعيق توحيد السياسات والإجراءات الصحية، إضافة إلى توفير التمويل المستدام، إذ يتطلب مثل هذا المجلس دعمًا ماليًا مستقرًا لضمان استمراريته وكفاءته. كما أن التوافق السياسي الذي لا نستطيع ان نغفل عنه بين الدول الأعضاء يعد عاملاً حاسمًا، حيث يعتمد نجاح أي كيان مشترك على الالتزام بتطبيق القرارات الجماعية وعدم تسييس القضايا الصحية.

مع تنامي الحاجة إلى مركز صحي عربي فعّال يعزز التنسيق بين الدول وازدياد الايمان بهذه الفكرة، يبرز التساؤل حول الشكل الأمثل لهذا التعاون، وآلياته، والتحديات التي قد تعترضه. ومن أبرز القضايا المطروحة هو ضرورة دراسة الحالات والتجارب السابقة واسباب اخفاقها بمهنية، وكذلك الدراسة المستفيضة القانونية لتجنب التعقيدات الإدارية والتشريعية التي تصاحب إنشاء كيان تنفيذي جديد على مستوى الدول العربية. بدلًا من ذلك، قد يكون من الأفضل اعتماد مسمى أكثر توافقًا مع الأطر العربية القائمة والتناغم معها، مثل «الهيئة العربية للصحة العامة»، أو «المركز العربي للصحة العامة» بحيث تدريجيا يصبح مركزاً تنفيذياً متكاملاً.

ولا نغفل وجود عدد من الكيانات الصحية العربية، مثل مجلس وزراء الصحة العرب، وبعض المراكز الوطنية التي تقوم بجزء من العمل الاقليمي المتخصص، لكن فعاليتها تظل محل تساؤل في ظل انشاء هكذا كيان جديد. لذا، لا بد من تحديد طبيعة العلاقة بين الكيان المقترح وتلك الجهات، وهل سيكون بديلاً عن بعضها ومكملًا لبعضها الآخر؟ لدينا نموذج «مركز مكافحة الأمراض الخليجي»، والي لا يزال يواجه بعض الصعوبات التشغيلية والتمويلية. فكيف سيكون الحال عند توسيع النموذج ليشمل جميع الدول العربية؟ هذا الوضوح ضروري لتجنب التداخل في الصلاحيات وضمن وجود دور فعّال لكل جهة في المنظومة الصحية العربية. التجارب السابقة أثبتت أن استدامة المشاريع العربية تعتمد بشكل كبير على الالتزام المالي للدول الأعضاء، وعدم تسييس الامور وهو ما لا يكون مضمونًا دائمًا.

ربما يكون الحل الأمثل هو تبني نهج تدريجي، يبدأ بمشروع ريادي يضم عددًا محدودًا من الدول العربية كنموذج تجريبي، ثم يتم توسيعه تدريجيًا مع مرور الوقت. هذا النهج يسمح باختبار فعالية التعاون على نطاق ضيق قبل تعميمه، كما يتيح فرصة لتقييم التحديات وإيجاد حلول عملية لها. الحديث عن إنشاء هذا الكيان يجب ألا يقتصر على النطاق الرسمي فقط، بل يجب أن يشمل جميع الجهات الفاعلة، من منظمات المجتمع المدني إلى المؤسسات البحثية والخبراء في المجال الصحي.

فتح باب النقاش حول هذا الموضوع، وإشراك جميع الأطراف المعنية، هو الخطوة الأولى نحو بناء شراكة مستدامة تضع الصحة العامة في مقدمة الأولويات العربية. إن تحقيق التكامل الصحي العربي ليس بالمهمة السهلة، لكنه ممكن إذا توافرت الإرادة السياسية والآليات المناسبة لضمان نجاحه. الأمور معقدة وكلنا نعرف ذلك ولكن من حقنا وواجبنا ايجاد السبل والطرق وتذليل المعوقات بهدف تعزيز صحة المجتمعات العربية؟ الأيام كفيلة بالإجابة ولنا اسوة في المراكز في المناطق الاخرى التي وحدتها الأهداف ولم تفرقها الاختلافات.

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

## المعايدات المعلبة في زمن الرسائل الجاهزة:

نعم، لا شك أن لوسائل التواصل الاجتماعي، وخاصة فيسبوك وواتساب، فوائد عديدة في تسهيل المعايدات والتواصل مع الأحباب. لكنها في هذا العيد جعلتني أتوقف وأتساءل: هل أصبحنا نعتمد عليها بالكامل حتى فقدنا جوهر المعايدة الحقيقية؟

نرسل التهاني فنقرأ فقط أسماء المرسلين، ولا أحد يكلف نفسه عناء قراءة التفاصيل. كل شيء جاهز ومكرر، الرسائل متشابهة، الصياغات مكررة، وحتى المشاعر تبدو مستنسخة. لم يعد هناك فرق بين معايدة القريب والبعيد، الحبيب والصديق، فكأنما أصبحت المعايدة واجبًا روتينيًا، لا تعبيرًا صادقًا عن المودة.

لقد أفرطنا في استخدام هذه الوسائل لدرجة أننا فقدنا قيمة التواصل الحقيقي. لم أعد أذكر من عايدني ومن عايدته، فالرسائل تتطاير كأنها بطاقات في مهب الريح، بلا روح ولا دفء. لعلّنا بحاجة إلى وقفة، إلى العودة إلى أصل العيد، حيث كانت المعايدة لقاءً مباشرًا، أو صوتًا دافئًا عبر الهاتف، أو حتى رسالة مكتوبة تعكس صدق المشاعر. كل عام وأنتم بخير، لكن الأهم... كل عام وأنتم أقرب!

**الرابط: صحيفة عمون**

# عيد زمان: بهجة الفوضى وحنين التعب الجميل!

كثيراً ما نردد العبارة الشهيرة: "أيام العيد زمان كانت أحلى"، لكن إذا تأملنا المشهد بتمعّن، قد نكتشف أن العيد قديمًا لم يكن مجرد فرحة ولمة عائلية، بل كان أقرب إلى مغامرة متكاملة الأركان؛ مزيج من الإثارة، الضغط، والانخراط في منافسات عائلية تكاد تُصنّف ضمن البطولات الأولمبية.

كل شيء يبدأ من ليلة العيد، اليوم الذي يفقد فيه الزمن اتّزانه، ويصبح الكل على عجلة من أمره. الأب، في لحظة حماسة مفرطة، يتخذ قرارًا بطوليًا باصطحاب الأطفال إلى السوبرماركت «للتخفيف عن الأم»، لكنه سرعان ما يكتشف أنه أوقع نفسه في فخ محكم. المكان مكتظ، العربات تتصادم، والمشهد برمّته أشبه بمسابقة «من يتمكّن من شراء أكبر عدد من الأغراض العشوائية في أقل وقت ممكن». الأطفال يريدون شراء كل ما يلمع أو يُصدر صوتًا، والأب يحاول إقناعهم بأن العيد ليس موسم تموين... ولكن دون جدوى.

وعلى جبهة أخرى، تخوض الأم معركة "الملابس العيدية". فتيات يُصررن على اختيار فساتين بألوان تتحدى قوانين البصر، وأولاد يطمحون إلى ارتداء بدلات رسمية تليق بمؤتمرات اقتصادية،

بينما يحاول الوالدان الجمع بين الذوق والميزانية دون انهيار أعصاب أو إفلاس مبكّر.

ثم تأتي مرحلة تنظيف المنزل، التي تُعامل وكأن هناك تفتيشًا وزاريًا طارئًا. الكل يُجند في هذا المشروع الوطني: الشُبابيك يجب أن تلمع، السجاد يُنظف وكأنه سيُعرض في مزاد، وحتى النائم لا ينجو، إذ يُستدعى فورًا للمشاركة في المهام!

وفي الصباح، يبدأ العيد بزيارة المقابر، حيث يمتزج الحنين بالهدوء، ويتسابق الأطفال بين القبور وكأنهم في مغامرة استكشافية، فيما الكبار يسترجعون ذكريات الغائبين. لا تخلو الزيارة من توزيع الحلويات، لكن بعض الأمهات – مثل والدتي رحمها الله – كانت تعتبر «الغريبة» تحديدًا حلوى غير مرحّب بها، وكأنها فأل شؤم يُعكّر صفو العيد.

ثم يبدأ ماراثون الزيارات العائلية، وهو سباق اجتماعي لا يرحم. من بيت إلى آخر، نُعيد نفس الجمل: «لسه شايفينكم!»، «يلا نشرب قهوة!»، «لازم نكمل باقي الزيارات!»، لتتحول المعدة إلى مستودع للكعك والكافيين، ويصبح اليوم بأكمله اختبارًا لقدرة الجسد على الصمود. ولا ننسى ايضا ضرورة حضور مسرحيات «العيال كبرت» و«مدرسة المشاغبين» حيث كانت جزءا رئيسا من طقوس الأعياد.

أما العيديات، فتمثّل التحدي الاقتصادي الأبرز في حياة العائلات. مبلغ العيدية يجب أن يكون محسوبًا بدقة، لا مبالغ فيه فيُحرج الآخرين، ولا قليل فيُشعل نار المقارنات العائلية. الأطفال، من جهتهم، يديرون العملية بذكاء مدهش، يسعون لجمع أكبر رصيد ممكن قبل أن يتدخل أحد الوالدين بجملة: «هخبّيهم لك للمستقبل»... مستقبلٌ لم نره حتى اليوم!

ومع غياب التكنولوجيا، كانت شبكة الرصد العائلي تُدار يدويًا. لا وجود لـ «واتساب» أو «ستوري إنستغرام»، بل أطفال صغار يتحولون إلى مراسلين ميدانيين، ينقلون أخبار الزيارات وتحليلات دقيقة عن الحضور، تُعرض لاحقًا في اجتماعات عائلية مصغّرة تشبه موجز الأخبار العاجلة.

وبين كل هذا الضغط، كانت هناك لحظة إنقاذ مقدّسة: الشاورما! ففي الماضي، كان يُعاد تسخين طعام الليلة السابقة، لكن اليوم، باتت الشاورما خيارًا دبلوماسيًا يُرضي الجميع، يحلّ معضلة «الطبخ في العيد!»، وينقذ العائلة من الصراع الأزلي بين الرغبة في الراحة والحاجة إلى الطعام.

لكن، مع كل هذا الجهد والضجيج، حين تمر أيام العيد ونعود إلى روتين الحياة، نكتشف أن تلك اللحظات التي كانت تُتعبنا، هي ذاتها التي نضحك عند تذكّرها. العيد لم يكن فقط لباسًا جديدًا أو كعكًا منزليًا، بل كان فوضى جميلة، ذكريات لا تُنسى، وضحكات

ما زالت ترنّ في ذاكرتنا.

مع المساء وانتهاء موجة الضيوف، تجد الأسرة نفسها منهكةً لكنها راضية البال. سنواتٌ مرّت، لكن تفاصيل تلك الأيام بكل مشقتها ومرحها بقيت حيّةً في الذاكرة. قد يكون عيد اليوم أكثر راحةً وتنظيمًا، لكن عيد زمان كان مدرسةً للفرح العفوي وروح العائلة الواحدة. جمال تلك الذكريات رغم تعبها يضيء قلوبنا ويذكّرنا بأن بهجة العيد الحقيقية في تلك اللحظات البسيطة الصادقة.

**الرابط: صحيفة عمون**

★★★

# الذكاء الاصطناعي والصحة في العالم العربي: بين آفاق التكنولوجيا الواعدة وتحديات التطبيق:

في وقت تعيش فيه المنطقة العربية تحديات صحية وبيئية عميقة، من تزايد مستمر للأمراض المزمنة، وتأثيرات التغير المناخي، وتزايد الضغوط على الأنظمة الصحية، لم يعد الذكاء الاصطناعي مجرد خيار رفاهية بل ضرورة ملحة لتحسين الواقع الصحي الإقليمي، كأداة تكنولوجيا قد تفتح آفاقًا جديدة للوقاية والتشخيص والعلاج.

وتقدم منطقة الخليج العربي نموذجًا ملهمًا في هذا السياق، حيث شهدت تحولًا ملحوظًا في استخدام الذكاء الاصطناعي في العديد من المجالات الصحية، من تطوير منصات رقمية متخصصة في التصوير الطبي، إلى إجراء ملايين الاستشارات الطبية عن بُعد، والكشف المبكر عن الأمراض الوراثية، واستخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي لأول مرة في الجراحة والتنظير لرصد الأورام غير المرئية. وفي بلدان أخرى من العالم العربي، أظهر الذكاء الاصطناعي قدرة فائقة على التنبؤ بتغيرات المناخ التي تؤثر بشكل كبير على المنطقة، مثل موجات الحر والجفاف وشح المياه. كذلك هنالك نقلة نوعية في بعض الدول بما يخص سلاسل تبريد المطاعيم وغيرها.

ورغم الإمكانيات الهائلة التي يوفرها الذكاء الاصطناعي لمنطقتنا، لا تزال هناك تحديات كبيرة تعوق استثماره على النحو الأمثل. فتشير العديد من الدراسات إلى أن هناك مجموعة من التحديات التي تعوق تبني الذكاء الاصطناعي في المجال الصحي، ومن أبرزها ضعف جودة البيانات وقلة البيانات المتاحة، بالإضافة إلى ضعف البنية التحتية الصحية، علاوة على الحاجة لتدريب عاملي الرعاية الصحية وزيادة الوعي بين مقدمي الخدمات والمرضى بأهمية تقنيات الذكاء الاصطناعي وتعزيز قبولهم لها. هذا بالإضافة إلى المخاوف من أن يتم التركيز على استخدام الذكاء الاصطناعي في النهج العلاجي المتقدم والمكلف بدلاً من توجيه الاستثمارات نحو الرعاية الصحية الأولية والصحة العامة، وهو ما قد يحقق عوائد صحية واقتصادية واجتماعية أكبر على المدى الطويل.

وعند النظر إلى النطاق الأوسع للصحة الرقمية في المنطقة، نلاحظ أن تطبيق التقنيات المتقدمة مثل الذكاء الاصطناعي يواجه تحديات أكبر. فحتى التكنولوجيات الأساسية، مثل إنشاء أنظمة معلومات صحية إلكترونية مثل أنظمة الرصد، لا تزال بعيدة عن متناول العديد من دول المنطقة، خاصة تلك ذات الدخل المنخفض والمتأثرة بالصراعات.

ومن جانب آخر، يُظهر استطلاع منظمة الصحة العالمية لعام ٢٠٢١-٢٠٢٢ تأخر بعض الدول في مجال الصحة الرقمية، حيث أظهر الاستطلاع أن غالبية دول منطقة شرق المتوسط لديها بعض

السياسات أو الاستراتيجيات في ما يتعلق بالصحة الرقمية، وأن سبع دول فقط تمتلك استراتيجية وطنية للصحة الرقمية.

لتجاوز هذه التحديات وتحقيق أقصى استفادة من الذكاء الاصطناعي، من الضروري أن نقيم أولويات الدول فيما يتعلق بالصحة الرقمية عموما. فعلينا دراسة واقع النظم والمعايير والبُنى التحتية والسياسات القائمة، وتحديد الفجوات والأولويات والموارد اللازمة لتطوير أنظمة صحية رقمية مستدامة تتوافق مع الاحتياجات الخاصة لكل دولة. ومن الأهمية بمكان أن نركز على دعم تطبيق التكنولوجيا في مجال الصحة المجتمعية، بما يعزز الوقاية ويُحسن الوعي، بدلاً من التركيز فقط على الجانب العلاجي والطبي. فنحن بحاجة إلى نشر الوعي وحشد التأييد المستند إلى الأدلة لاعتماد الذكاء الاصطناعي في الطب الوقائي، بدلًا من حصره في العلاج، إذ يوفر هذا النهج حلًا مستدامًا لمواجهة التحديات الصحية.

كما يجب تعزيز التعاون الإقليمي في مجال الصحة الرقمية، بحيث يتم تبادل الخبرات والقدرات بين الدول للاستفادة من المرافق الصحية الرقمية المتقدمة، مثل المستشفيات الافتراضية والمراكز المتخصصة، لدعم الدول ذات الموارد المحدودة. وينبغي أن تشمل هذه الجهود اتفاقات مستدامة بين الهيئات الصحية وآليات تعاون تهدف إلى سد الفجوات في مجالات الرعاية غير المتوفرة في البيئات محدودة الموارد.

يمثل الذكاء الاصطناعي فرصة غير مسبوقة لتحسين الواقع الصحي في المنطقة. ولكن هذه الفرصة لن تتحقق إلا من خلال رؤية واضحة، واستثمارات مدروسة، وتعاون مستدام بين دول المنطقة. فالطريق نحو تطبيق الذكاء الاصطناعي في الصحة يتطلب منا توجيه الموارد نحو بناء نظام صحي يواكب المتغيرات التقنية بما يخدم العلوم الصحية كافة ويحقق العدالة الصحية للجميع.

**الرابط: صحيفة الرأي**

★★★

# مقالات وآراء

الدكتور مهند عبد الفتاح النسور طبيب وخبير دولي في الوبائيات الميدانية وأنظمة الصحة والبحوث التطبيقية، وحاصل على زمالة التميز من كلية الصحة العامة في المملكة المتحدة، ومحاضر غير متفرغ في عدد من الجامعات العربية. يشغل منذ عام ٢٠٠٩ منصب المدير التنفيذي للشبكة الشرق أوسطية للصحة المجتمعية (امغنت)، إحدى المؤسسات البحثية والفنية الرائدة إقليميًا وعالميًا في مجالات الصحة العامة. وهو ناشط ومتحدث إقليمي ودولي في قضايا الصحة العامة، تشمل علم الأوبئة، والتوصيات المبنية على الأدلة، وتعزيز التعاون والشراكات. وإلى جانب إنتاجه العلمي، يكتب في قضايا الشؤون الاجتماعية الصحية والأمور الحياتية المختلفة، وله إسهامات وجدانية وشذرات إنسانية ذات طابع شخصي. ساهم في تأليف أكثر من ٧٠ منشورًا علميًا محكّمًا، وهو مؤسس الأكاديمية الدولية للصحة العامة (IAPH)

اصدارات التجمع العربي 2025 - القاهرة